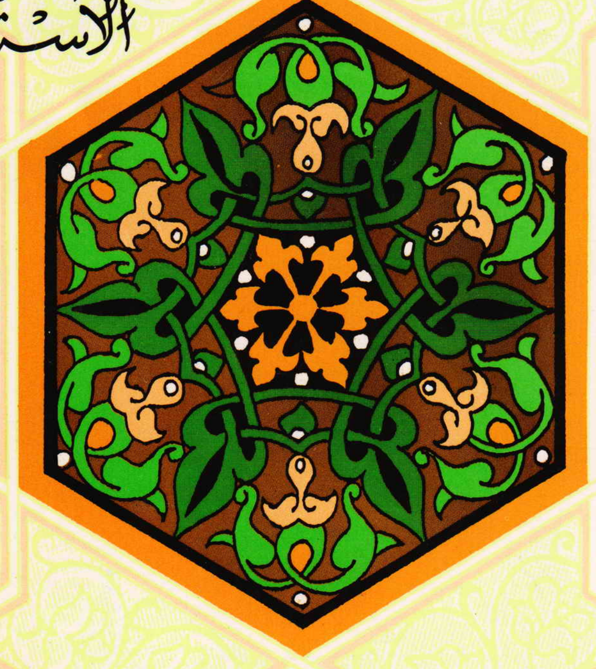
عوامل السيطرة على الغرائز في حياة الإنسان

الأستاذ مظاهري



دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء



عوامل السيطرة على الغرائز
في حياة الانسان

عوامل السيطرة على الغرائز
في حياة الإنسان

تأليف

الأستاذ مظاهري

ترجمة

لجنة الهدى

دار المحجة البيضاء

دار الرسول الأكرم (ص)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت - لبنان ص. ب: ١٤/٥٤٧٩

منزلة الإنسان وقيمته في نظر الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه وأشرف بريتهِ.

أبي القاسم محمد (ص) وعلى آلهِ الطيبين الطاهرين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

سيّما بقيّة الله في الأرضين ولعنةُ الله على أعدائهم أجمعين.

موضوع بحثي هو العوامل التي يمكنها الحدّ من طغيان الإنسان، الإنسان الذي يريد إزالة كلّ الموانع من أمامهِ والذي يقول عنه القرآن الكريم.

﴿بل يريدُ الإنسانُ لِيفجُرَ أَمامَهُ﴾[1].

ومن البديهي إنْ لم يكن الخوف لاصبح الإنسانُ طاغياً ومجرماً، وأضلُّ من أيّ حيوان مفترس كما يعبّر عنه القرآن الكريم:

﴿إنَّ شرَّ الدّوابِّ عند اللَّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِيْنَ لا يعقلون﴾[2].

نعم فالإنسان الذي لا مانع أمامه، ويفعل ما يشاء، يكون ضررةُ لنفسه ولمجتمعهِ أسوأ من ضرر أيّ حيوان مفترس.

سيكون بحثنا عن العوامل المانعة لهذا الإنسان من الطغيان إن شاء الله.

طُرحتْ نظريات في هذا المجال سنتحدث عنها لنرىٰ ما هي الأمور التي يمكنها أن تمنع طغيان الإنسان.

---

(١) سورة القيامة/ الآية ٥.

(٢) سورة الأنفال/ الآية ٢٢.

منزلة الإنسان وقدره:

قبل الدخول في البحث الأصلي علينا أن نبيّن مقدمةً وهي أن الإنسان موجود عجيب جداً. فهو يصير مجرماً عند فتح الطريق أمامه وعدم وجود السيطرة عليه، ويصلُ إلى مقام رفيع جداً لو سيطرَ على غرائزه وتغلّبَ على نفسهِ الأمّارة بالسوء.

ينسب لأمير المؤمنين (ع) في هذا المجال قوله:

أَتَـزْعَـمُ أنَّـكَ جِـرْمٌ صـغـيـرٌ وفـيـكَ انْـطَـوىَ الـعـالَـمُ الأَكْـبَـرُ

جعل القرآن الكريم للإنسان قدراً ومنزلة عُظمىٰ. يعظّمُ القرآنُ وروايات أهل البيت (ع) الإنسانَ كثيراً بحيث يعتبرهُ القرآن الهدف من خلق العالم ويقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خلق لكُمْ ما في الأرضِ جميعاً﴾[1].

ويقول أيضاً:

﴿ألَمْ تَرَوْا أنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما في السمٰواتِ وما في الأَرْضِ﴾[2].

أي أيها الإنسان! إعرف قَدْرَكَ ومنزلتك، فأنت الذي خُلِقَ الكون لأجلكَ.

الإنسان هو خليفة الله من وجهة نظر القرآن. قال تعالى مخاطباً الملائكة:

﴿إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾[3].

من هو الخليفة؟ يقول أستاذنا العظيم المرحوم العلاّمة الطباطبائي رحمة الله عليه فِي تفسير الميزان: يجب أن يكون الخليفة من حيث الشؤون الوجودية مَظهراً لصفات المُنعم.

---

(١) سورة البقرة/ الآية ٢٩.

(٢) سورة لقمان/ الآيه ٢٠.

(٣) سورة البقرة/الآية ٣٠.٤

يجب أن يكون الإنسان مظهراً لصفات الله، أي تسيطر على قلبهِ صفات الله الجلالية والجمالية. ويجب أن يكون قلبُ الإنسانِ عرشاً للّهِ. وها هو القرآن يقول:

أيها الإنسان! لو أردْتَ أن تعرفَ نفسك، فاْعلم بأنّك خليفة اللّه، ويمكنك أن تكون مظهراً لصفات اللّهِ تعالى. يمكن لقدرة نفسِكَ وميزان علمِكَ أن تصلَ إلى مرحلةٍ يمكنك فيها التصرف في عالم الوجود والتسلّط على الأمور التكوينية في العالم. وتحصل على قدرة عظيمة بحيث لو أردْتَ وقوع أمرٍ تقول له كُنْ فيكون. وجاء في الحديث القدسي:

عَبْدي أطعْني حتى تكن مِثلي تقول للشيء كُنْ فيكون.

الإنسانُ وحدَهُ أمينُ اللّهِ:

الإنسان أمين الله من وجهة نظر القرآن، أي أودِعَتْ أمانَةُ الله في وجودِهِ. الأمانةُ في النظرة القرآنية على نوعين: أحدهما هو النِّعَم التي أعطاها الله تعالى للإنسان كما يذكر القرآن الكريم ذلك، بقوله:

﴿وآتُوهم مِنْ مالِ اللّهِ الّذي آتاكُمْ﴾[1].

وبعبارة أخرى يقول الله تعالى: أيها الإنسان إن الأموال التي تمتلكها هي لي وأنت مُؤتمني، فجعلتُ هذا المال أمانة عندكَ لتستفيد منه وتعطيهِ للآخرين أيضاً. أعطيتك العلم، وهو أمانة أيضاً، فعليك أن تستفيد منه وتبذله للآخرين. أعطيتك القدرة والسلامة، والأهم من هذا كلّه أعطيتك العقل، فهذه كلّها أمانات عندك.

يقول القرآن:

﴿وأسْبَغَ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطِنَةً﴾[2].

---

(١) سورة النور/ الآية ٣٣.

(٢) سورة لقمان/ الآية ٢٠.

هذا أحد أنواع الأمانة. والقسم الآخر للأمانة هو التكليفِ. فقد منحنا اللّهُ أمانة التكليف وقال: حافظوا على هذه الجوهرة الثمينة. فالتكليف يوصلك إلى مكانٍ ليس فيه إلاّ الله.

نعم يصل الإنسان إلى مكان لا يرىٰ إلاّ الله أو لا يعلم بشيء إلاّ الله. وهذا هو دورُ التكليف. فمن وجهة نظر القرآن، الإنسانُ لوحدِه هو أمين اللّه، ولا طاقة لأي موجود آخر على حَمْلِ الأمانة.

﴿إنّا عَرَضْنَا الأمانة على السَّماواتِ والأرْضِ والجبالِ فأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ منها وَحَمَلَها الإنسانُ﴾[1].

نعم، عُرِضَتْ أمانة التكليف على عالم الوجود، فأبىٰ أنْ يحملها، خاف الجميعُ من التصدّي لهذه الأمانة. والذي أمكنَهُ تحملها من حيث التكوين والوجود كان مؤهلاً ليكون أمين الله تعالى، وهو الإنسان. لا يوجد لمسيرة الإنسان حدٌّ نهائي في نظر القرآن. فحدُّهُ النهائي عند الله تعالى وفي جوار اللّه. إنّ للإنسان ضالّة يبحث عنها دائماً. وضالَةُ الإنسان هو اللّهُ لا الدنيا. جاء في الروايات أن الذي يبحث عن الدنيا ويريدها هو كالظمآن كلّما شرِبَ ماءً مالحاً لم يرتوِ. فليس المال ولا الرئاسة هي ضالة الإنسان، بل في الحقيقة إن ضالته هي الله تعالى.

نُقِلَ عن الرسول (ص) أنه قال في حديث:

إنّ الشهيد ينظر في وجهِ اللّهِ، وانّها لَرَاحةٌ لكُلِّ نبيٍّ وشهيدٍ[2].

المقصود من هذا الحديث هو أن لذّةَ الشهيد وأمثاله كالنبي وهو الإنسان الكامل هي في النظر إلى وجه اللّهِ وذاته الربوبية، فهذه لّذتهم وليست الجنة.

لا يقف سير الإنسان عندَ حدٍّ:

هدفُ الإنسان الذي عرف نفسهُ هو الله تعالى لا الدنيا، فالدنيا في نظر

---

(١) سورة الأحزاب/الآية ٧٢.

(٢) وسائل الشيعة/ المجلد ١ ـ ص ١٠.

هذا الإنسان هي بقَدَر جناح ذُبابة. ولهذا عندما يعترضُ ابن عباس على الإمام علي (ع) لترقيعه حذائه مرّات عديدة وهو إمام المسلمين وحكمهم. يرمي الإمام (ع) الحذاء أمام ابن عباس ويسأله ما قَدَر هذه الحذاء؟

يقول ابن عباس: لا شيء. فيقول الإمام (ع): والّذي نفس عليّ بيدهِ، إنّ الدنيا والرئاسة عند علي كهذا الحذاء لا قيمة لها، إلاّ أن أُقيمَ حقّاً أو أمنعَ باطلاً.

ويقول في مكان آخر من نهج البلاغة: والذي فلق الحبّة وَبَرأ النَّسَمَة، إنّ دنياكم عندي أقلُّ مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ.

أجل، فإن لم يعرف الإنسان نفسه، ولم يعرف ضالته، يكون في هذه الدنيا كدودة القز يلتفُّ حول نفسهِ في حين يمكنه الوصول إلى مقام رفيع جداً. فلا يقف سيرُ الإنسان عند حدٍّ بل حدُّه الاخير عند الله تعالى. وعندما يصل ذلك الحدّ يستمرُّ سيرهُ أيضاً، ويبقى ممتعاً بالإفاضات الربوبيّة.

جاء في الروايات أن بعض العباد يدخلون الجنة يوم القيامة وجنتهم عند الله تعالى. عندما صُلِبَتْ امرأة فرعون بأمرِهِ، كانت تنادي الله تعالى وتناجيهِ، ينقل القرآن الكريم ما قالته، وهو:

﴿ربِّ ٱبْنِ لي عِندَكَ بيتاً في الجنّةِ، ونَجِني مِنْ فرعونَ وعَمَلِهِ، وَنَجّنِي مِنَ القَوْمِ الظالمينَ﴾[1].

فلسان حال زوجة فرعون واضح وهو: اللهمَّ إنّ العيْش في قصر فرعون ونظامهِ هو سجن لي. يحزنني أن أكون آمرأة فرعون وزوجة ملك مصر، إلهي أريد أن تجعلني في الجنة، ولكن لا أريد جنة بعيدة عنك، بل جنة عندك وبقربِكَ. فإن لم يكن مكاني بقربك فلا أريدُ الجنة، وذلك سجن لي أيضاً.

فالجنة بغير اللّهِ سجن وجهنّمٌ لعباد الله. كان الرسول الأكرم (ص)

(١) سورة التحريم/ الآية ١١.

يقول: رأيتُ ليلة المعراج مكان ومقام الذين يدخلون الجنة. رأيتُ قصوراً بُنِيتْ من اللؤلؤ والمرجان، قصور أوسعُ من الدنيا. وجاء الخطاب: يا رسول الله هذه القصور هي لعبادي الذين عرفوني. يا رسول الله، إنني أنظر إلى عبادي هؤلاء سبعين مرّة كل يوم وأفيض عليهم في كلّ نظرة ثم أقول لهم: يا عبادي ليتَنَعَّمَ أهل الجنّةَ بِنِعَمهم ولتكن نعمتكم هي حديثي معكم وحديثكم معي أي اكلمكم وتكلّموني.

عرفت زوجة فرعون ما عند اللّهِ، فعرفت نفسها، لذا لم تقنع بالقليل، ولم تكتفِ بالجنّة، فالجنة قليلة جداً للإنسان. فما هي الجنة؟! وبماذا تقنعون؟ ابحثوا عن المحبوب، وابحثوا عن الهدف.

عبادُ الله الصالحون كامرأة فرعون يطلبون جنةً عند الله وفي جوارهِ تعالى. وعندما يصل الإنسان إلى ذلك المقام لا تنقطع عنه الإفاضات الربوبيّة أيضاً. ينظر الله تعالى إلى عبادهِ في كل يوم سبعين مرّة[١] نظرةَ العاشق إلى المعشوق أو نظرة المعشوق إلى العاشق. نظر الربّ إلى المربوب أو نظر المربوب إلى الربّ، كلها إلى إفاضات. لذا لا يوجد للإنسان حدٌّ نهائي، فعندما يصل إلى مقرّه النهائي أي عند الله تعالى فهناك إفاضة بعد إفاضة، ونظر على نظر وكمال فوق كمال. فهنيئاً لهم.

ويوجد في الجنة أفراد ينتهي سيرهم إلى الجنة فقط، لكن الغاية من خلق الإنسان أرفع من الجنة، وكما يقول القرآن الكريم:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢].

يسطع نور هؤلاء كالبدر في المحشر، وهم مسرورون يغبطهم الآخرون، فما هي أعمالهم؟ هؤلاء لا يُحاسبون فهم نظروا إلى ذات الله.

يخاطب القرآن الكريم الإنسانَ ويقول:

---

(١) ذكر العدد سبعين للكثرة.

(٢) سورة القيامة/ الآية ٢٣.

﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارْجِعي﴾[1].

إلى أين؟ «إلى ربّك».

فقد وَجَدْتِ ضالتك في هذهِ الدنيا، فلا أحد يسيطر علىٰ قلبك غير الله، ووصلت إلى مقام اللقاء في هذه الدنيا أيضاً. وصلت إلى منزلة رفيعة بحيث يمكنك تغيير العالم بقولك: يا الله فقط.

﴿إرجعي إلى ربِّكِ راضية مَرْضِيّة﴾[2].

فهنيئاً لأولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

﴿فادْخُلي في عبادي وادخلي جَنّتي﴾[3].

ارجعي بقرب الرسول. ارجعي إلى الحسين وشهداء كربلاء وبقرب الصالحين أمثال سلمان وأبي ذر.

﴿فَمَنْ كانَ يرجو لقاء ربّهِ فليعملْ عَمَلاً صالحاً﴾[4].

نعم أيها الإنسان أطع الله واعمل الصالحات لتجد الله تعالى وتشعر بلقائه كما يجد الظمآن العطش، وعندما يشرب الماء يدرك ويحسُّ بالارتواء.

يقول القرآن الكريم:

﴿إنَّ المتقينَ في جناتٍ ونَهَرٍ في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[5].

ما هو الجوّ الذي ينعمون فيه؟ جوٌّ ملؤهُ الحقيقة لا الكلام، حقيقة لا سراب (كهذه الدنيا) وبالتالي فإنّ مقر الإنسان النهائي هو: عند مليكٍ مقتدِرٍ.

الناس أحياءٌ بعد الموت، لكنَّ بعضهم أحياءٌ في جهنم، وآخرون أحياءٌ في الجنة، وقسمٌ أحياءٌ عند الله تعالى.

---

(١) سورة الفجر/ الآية ٢٧.

(٢) سورة الفجر/ الآية ٢٨.

(٣) سورة الفجر/ الآية ٢٩ و٣٠.

(٤) سورة الكهف/ الآية ١١٠.

(٥) سورة القمر/ الآية ٥٤ و٥٥.

﴿ولا تحسبنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللّهِ أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

فخلق الإنسانُ ليبقىٰ حيّاً عند الله، عند مليكٍ مقتدرٍ.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَاصْطَنَعتكَ لِنَفْسي﴾[2].

لو ربطنا الآيات التي تذكر الهدف من خلق الإنسان مع هذه الآية نحصل على مضمون الحديث القدسي الذي يقول:

خلقتُ الأَشياءَ لأجلِكَ وخَلَقْتُكَ لأَجلي.

أيّها الإنسان خلقكَ الله لنفسه، لا لأجل الدنيا. خلق الدنيا لأجلكَ، فلماذا وضعتَ نفسك في خدمتها؟! ومن الحمق أن يخدم الإنسان شيئاً يجب أن يكون تحت تصرّفه تماماً.

الإنسانُ موجودٌ مجهولٌ:

العصر الحاضر مع كل تطوراتهِ علمياً لم يصل إلى معرفة الإنسان. فكل الجرائم التي يقوم بها البشر منذ زمن آدم (ع) وحتى يوم القيامة هي لعدم معرفة الإنسان نفسه، ولأنه لم يعرف نفسهُ ابتلي بهذه الأمور.

يقول تعالى في تتمّة عرض الأمانة على الإنسان:

﴿إنّهُ كانَ ظَلوماً جَهُولاً﴾[3].

لم يعرف الإنسان نفسَهُ، فظلمها. فالإنسان ظالمٌ لأنَّ مكانه يجب أن يكون عند الله في حين أنّه كدودة القزّ يلتفُّ حول نفسهِ، وفي رأي العارفين وأصحاب البصيرة عندما يعيش الإنسان في دنيا الحرام فهو كالدودة التي تعيش في الأوساخ.

---

(١) سورة آل عمران/ الآية ١٦٩.

(٢) سورة طه/ الآية ٤١.

(٣) سورة الأحزاب/ الآية ٧٢.

الإنسان الذي يخاطبهُ الله تعالى: يا أيتها النفس المطمئنَّة. يمكنه أن يفسد نفسه بحيث يعيش كدودة القز في هذه الدنيا حتى يموت. وعندما يموت ويُلقىٰ في جهنم ويصرخ ويبكي يأتِهِ الخطاب:

﴿إخسَئُوا فيها ولا تُكلّمونِ﴾[1].

وبهذا أليس البشر ظلوماً وجهولاً؟ الإنسان الذي يعتبر القرآن مكانَهُ عند اللّهِ ولذّتهُ هي النظر إلى الذّات الربوبية، عندما ينحرف ويفسد بحيث يقال له ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ﴾[2]، أليس الإنسان الذي يكون مصداقاً لهذه الآية جهولاً؟ ألا يُعتبر ظلوماً؟

لماذا يقع الإنسان في بلاء كهذا؟ ولماذا يسيطر عليه الشيطان والنفس الأمّارة؟ كل هذه التعاسة تنشأ من عدم معرفة الإنسان نفسَهُ.

سُئِلَ رجلٌ عظيمٌ: لماذا آستطاع الإنسان بتقدّمه العلمي أن يسخر الطبيعة ولكنّه لم يتمكن من تسخير الإنسان؟

أجابَ: لأنّ البشر عرف الطبيعة فسخّرها لكنّه لم يعرف الإنسان حتى يسخّرهُ.

نظرة الشرق والغرب للإنسان:

ماذا يقول العالم المعاصر عن الإنسان مع كل تطوّراته وتقدمه العلمي؟ حطّ الشرق من منزلة الإنسان حتى أنزله منزلة الآلة والوسيلة للعمل. وشعارهم هو: كلٌّ حسب قدرتهِ ولكلٌّ حسب حاجتهِ، فهو كالسيّارة، تُعطىٰ دهناً وبنزيناً وهي تعمل بكلّ قدرتها، وهكذا الحمار، فالإنسان برأيهم هو حمارٌ، لأن الحمار يعطىٰ شعيراً وغذاءً بقدر ضرورته وحاجتهِ ويُستعمل بمقدار قدرتهِ. فهذه نظرة الشرق.

---

(١) سورة المؤمنون/ الآية ١٠٨.

(٢) سورة الأعراف/ الآية ١٧٩.

نظرة الغرب إلى الإنسان أسوأ من نظرة الشرق، تظهر في الغربِ مذاهب كثيرة، سرعان ما كانت تدحضُ بعد فترة لكنّ آثارها السنوية تبقىٰ في المجتمع. تقول النظريات الاجتماعية: إن وجود الإنسان يعود إلى الغرائز الجنسيّة وإنّ لسلوكه منشأ جنسيّاً. وهذه نظرية فرويد. هل عرف فرويد الإنسان؟ الآثار الجنائية التي تركتها نظرية فرويد في المجتمعات الغربية وفي العالم بشكل عام، سببها هو أن فرويد لم يعرف الإنسان.

وهناك نظريات أخرى في هذا المجال أيضاً تجعل الإنسان في صفة الحيوانات. اعتبر القرآن الإنسان الذي عرّفوه وصوّروه كالحيوان بل أضلّ. أولئك كالأنعام بل هُم أَضلُّ.

رأيتُ مهندساً ألمانياً كان يحسب المواد التي يتركب منها جسم الإنسان وأعلن بعد ذلك أن قيمة الإنسان تعادل ٨٠ ماركاً، قال: يوجد في جسم الإنسان عدّة غرامات من السُكّر، وعدّة غرامات من الحديد، وغرامات من الصوديوم و...، فعيّنَ ثمن هذه المواد بالقيمة السوقية، وبعد جمعها عيَّنَ قيمة الإنسان وثمنه وهو ٨٠ ماركاً.

عندما لاحظت هذه المحاسبة، تذكّرت رواية لأمير المؤمنين (ع) قال فيها: الإنسان الذي همّهُ بطنهُ فقيمتهُ تعادل ما يخرج من بطنهِ! أي أن ٨٠ ماركاً سعرٌ كبير لهكذا إنسان. ويقول الإمام (ع) في نهج البلاغة: الإنسان المؤمن أفضل من الكعبة وأعظم من جبرئيل درجةً فهذا الإنسان نفسه يتنزّل إلى الحضيض، إلى درجة يقول عنه أمير المؤمنين (ع) إنّ قيمتهُ بقدر ما يخرج من بطنه.

قيمةُ الإنسانِ وحرمتهُ

قلنا في البحث السابق إن الإنسان لا يريد أن يقف أمامهُ مانعٌ وبتعبير القرآن يريد حصول ما يهوىٰ ويحب، وأن هذا الأمر لن ينفعه، ولن ينفع المجتمع. والكلام في العامل الذي يمكنه الوقوف أمام الإنسان والسير بهِ ضمن إطار الشرع والعقل والوجدان الأخلاقي.

يلزمنا ذكر مقدمات لهذا البحث، استوفينا المقدمة الأولى في البحث السابق. وتبيّن من خلال البحوث أن النظريات الشرقيّة والغربية حطّتْ من قيمة الإنسان ومنزلته في حين كان الإسلام قد جعل للإنسان مقاماً رفيعاً ولشخصيتهِ حُرمةً. وبرأي الإسلام يمكن لهذا الموجود أن يتحرك ويسمو إلى منزلة ومكان لا يرىٰ فيه إلاّ الله تعالى.

يمكن للإنسان أن يكسر القيود التي ربطتهُ بالطبيعة، ويصل إلى مقام يكون فيه أفضل من الملائكة. ويمكنهُ أن يصل في هذه الدنيا إلى مقام لا يسيطر على قلبه أي شيء وأي شخص إلاّ الله، بتعبير الروايات يكون قلبه عرش الله.

قلب المؤمن عرش الرحمان.

تلك المقدمة الأولى التي تحدثنا عنها في البحث السابق. وهذا البحث في بيان المقدمة الثانية وهي من أين تنشأ قيمة الإنسان وحرمته؟ ولماذا ليس لسائر الموجودات حرمة وقيمة كهذه؟

الإنسان موجودٌ ذو بُعدين:

من وجهة نظر القرآن والروايات تعود قيمة الإنسان وحرمته لكونه موجوداً ذا بُعدين واتجاهين، ولامتلاكه بُعدين يمكنه السير نحو الكمال. أحد البُعدين يُسمّىٰ الروح، ومن مراتبهِ العقل والوجدان الأخلاقي والقلب والصدر وأمثالها. وهذا هو الجانب الملكوتي للإنسان. والبُعد الآخر للإنسان هو الجانب الحيواني ويُسمّىٰ بالجسم ومجموعة الغرائز والميول.

ما هي كيفية تركيب هذين البُعدين؟ لا أحد يعلم بذلك. فكيفية التركيب عجيبة ومُحيِّرة. لهذا الجرم الذي يقول عنه أمير المؤمنين (ع) انطوىٰ فيه عالم الكون وهو محيّر، وكذلك تركيب الإنسان من حيث البُعد الملكوتي والحيواني لأنّ بينهما تضاداً، كالماء والنار. فنحن لا ندرك حقيقة هذا التضاد وكيفية تركيب هذين البُعدين، لكننا نعرفهما عن طريق آثارهما. فنرى أنّ لهذا الإنسانِ لذّات روحية، كلذّة العبادة ولذّة التعاون ومساعدة الآخرينِ. فلو فرّج عن أخيه المسلم كُربتهُ فإنّه يلتذُّ بذلك. ويلتذُّ بتحصيل العلم ومعرفة الحقيقة. وهذه اللذّات مؤلمة للبُعد الحيواني. أي لو بحثنا الإنسان من حيث البعد المادي والحيواني نرى أنّه لا يريد العبادة لأنّها صعبة ومتعبة ولو بحثنا من حيث حب المال نراه متكبّراً لا يعين الآخرين. لا يرغب في إعطاء أمواله للآخرين ومساعدتهم. كما أن لذات الجسم مؤلمة للروح. حتى الأمور المباحة كالأكل والشرب والنوم، وإشباع الشهوة، وكسب المال.

لذا قيل إن الرسول (ص) قال: يصدأُ قلبي بواسطة التعامل مع الناس والأكل والشرب والنوم وإشباع الشهوة وأمثالها، لذا استغفر الله كل يوم ٧٠ مرة. هذه الرواية وأمثالها كثير تقول لنا كلّ ما يلتذُّ به الإنسان من حيث البُعد المادي يكون مؤلماً للروح. فمن خلال هذه الآثار ندرك أنّ بين هذين البُعدين تضاد.

جاء في رواية أنّ الرسول (ص) قال: رأيتُ ليلة المعراج ملكاً كان نصفهُ من الورق ونصفه من النار. فلم يحترق الورق، ولم تؤثر النار في الورق. ولعلّ

هذا الأمر كما يقول أفلاطون هو مثالٌ للإنسان الذي يتكون وجوده من ضدّين.

هذان بُعدان عجيبان. فلو نظرنا إلى بُعدِهِ الروحي فهو عظيم بحيث يكون مسجوداً للملائكة عندما خلق الله تعالى آدمُ قال للملائكة:

﴿فإذا سويّتهُ ونَفَخْتُ فيهِ منْ روحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾[1].

فإنَّ لهذا البُعد الإنساني قَدْرٌ ومنزلة عظيمة بحيث سُمّي في الآية الشريفة روح الله. (روحي) إضافة تشريفيّة. كما لو قلتم لولدكم العزيز ابني أو ولدي، فهذا تشريف وله قدْر ومنزلة كبيرة بحيث أن روح الله هو مسجود الملائكة أي يجب على الملائكة وحتى جبرئيل أن تسجد له ثم يقول تعالى: ومن لم يسجد له فهو من المطرودين. فلم يسجد له إبليس.

«وكانَ من الكافِرينَ».

السيطرة على البُعد الحيواني لدى الإنسان:

لو درسنا البُعد الحيواني في الإنسان لقُلنا إنه شقيّ بالفطرة، وأن الشقاوة كامنة في ذاتهِ.

لو أمعنّا النظر في غرائز الإنسان الحيوانيّة والتي يعبر عنها القرآن بالنفس الأمّارة لوجدنا أنّ الشقاوة كامنة فيه، ولا يحدّه حدٌّ عن فعل الشر. وأنّه يصل إلى حالة عندما تغلبهُ الغريزة الجنسية لا يغض أنظارهُ عن أعراض الآخرين رغم تعدّد زوجاتهِ. وإن تغلبت عليه غريزة حب المال فإنْ أعطي الكرة الأرضية بأكملها، لم يكتفِ ويطلب كرةً أخرى، ليزيد من مُلكه. وإنّ سيطرت عليه غريزة حب الرئاسة، يكون مستعداً لقتل **ثلثي العالم ليحكم على ثلثهِ. لو تأملتم** في أوضاع العصر الحاضر وجدتم **أنّه جعل العلمَ وسيلةً لنهب المحرومين** واقتصاص دماء المستضعفين، وهذا ما يفعله الشرق والغرب، وهذا حال اليوم وهكذا سيكون حال الغد، وتستمرّ هذه الحالة حتى يكون العلم سبباً في

---

(١) سورة الحجر/ الآية ٢٩.

القضاء على نفسهِ أيضاً. وتحرق التكنولوجيا جذور هذه الحضارة، وإلاّ فكل يوم يكون أسوأ من سابقهِ. وكما يقول أستاذنا العظيم قائد الثورة، عندما ننظر إلى ذات هذا البُعد الحيواني نرىٰ أن ذاتهُ شرٌّ وفعلهُ شرٌّ أيضاً وبالتالي وبعد ارتكابهِ الشرّ، فإنّهُ يُهنّيء نفسهُ ويشجّعها علىٰ فعلها ويقول: أحسنتِ!، كان قتلكِ للناس عظيماً! ويضغط على الزر الذي يرمي الصاروخ ويقتل آلاف الأفراد من رجل وامرأة وطفل وعجوز بريء، وعند ذلك يضحك ويقول ما أحسن ما فعلتُ. فهذا بُعدهُ الحيواني.

لو سعىٰ الإنسان بتوفيق من الله للسيطرة على البُعد الحيواني ووضع له لجاماً وركبه كالخيل الذُلُلَ، وسعى بمساعدة الإمداد الإلهي لتغلّب البعد الرحماني على البُعد الحيواني، أمكنُه ركوب هذا الفرس المتمرّد، والوصول إلى الهدف بسرعة. فما هو هدفهُ ومقصدهُ؟ فهذا الفرس يكون له بمنزلة البُراق ويوصلهُ إلى مكانٍ لا يدخلهُ حتى الملائكة المقرّبون.

لو أمكنهُ ركوب هذا البُراق الذي لا يملكهُ جبرئيل ولا أي مَلَك مقرّب، يمكنه العروج إلى قمة الكمال. فلا يمكن للملك العروج إلى هذا الحدّ لأنّ كيفيّة وجودهِ ليست استكمالية ويمكن ذلك للإنسان. وإمكان عروج الإنسان لا يرتبط ببعده الرحماني فقط، ما لم يتغلّب البُعد الرحماني على البُعد الجسماني، ويوضع اللجام لخيل النفس المتمرّدة، ويركبها كالبراق، عند ذلك يمكنه العروج. ويتحول من جمادٍ يموت إلى اسم، ومِنْ اسم يموت إلى إنسان.

وكما يقول الشاعر: يحصل على أجنحة فجأة. ويصل إلى مكانٍ لا يمكن تصوّرهُ حتى في الخيال.

﴿فلا تعلَمُ نَفْسٌ ما أخفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

فلا يعلم أحدٌ إلاّ مَنْ يملِكُ براقاً قد عرج به ونال مقصده.

---

(١) سورة السجدة/ الآية ١٧.

ولكن لو حدث العكس، أي لو تغلّب البُعد الحيواني على الإنسان فماذا يفعل؟ فبدلاً من أن يحكم العقلُ الشهوةَ، فإن الشهوة تستخدم العقل لمصلحتها. وبدلاً من استخدام الوجدان الأخلاقي للبُعد الحيواني، فإنّ الميول الحيوانية كحب المال تسيطر على العقل والبُعد الرحماني. وعند ذلك يركب فرساً غير أصيلٍ. فماذا يكون الراكب؟ يقول القرآن: يكون أشد ضرراً من الحيوان المركوب.

﴿إنّ شرَّ الدَّوابِّ عِندَ اللّهِ الصُم البكُم الذّين لا يعقلونَ﴾[1].

الإنسان والنفس الأمّارة:

شرُّ الموجودات هو الإنسان الذي طغَتْ نفسه الأمارة على عقلهِ. عندما يتغلّب حب المال على عقل هذا الإنسان وبُعدهِ الرحماني، يصبح هذا الإنسان معاوية. فقد كان لمعاوية عقل، لكنّه كان مسخّراً لهوى نفسهِ. عندما يُسأل الإمام أمير المؤمنين (ع) هل كان لمعاوية عقل وذكاء؟ يقول (ع):

لم يكن لمعاوية عقل وكل ما عندهُ مكرٌ وشرّ. وفي الحقيقة كان لمعاوية عقلٌ، لكن ماذا حدث لهُ؟

كان عمرو بن العاص أعقل العرب لكنّه لأجل الرئاسة والمال أعطىٰ أثمن جوهرة وهي الإيمان.

عندما يشاهد الرسول بعض الأفراد وقد استعمل بُعدُهم الحيواني عقلَهُمْ يحزنُ كثيراً، فيأتيه الخطاب، يا رسول الله! لا تحزن؛ فهؤلاء كالأنعام.

﴿قُلِ اللّهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ في خوضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[2].

ويقول في آية أخرى:

﴿ذَرْهُمْ يَأكُلوا ويتمتعوا ويُلهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال/ الآية ٢٢.

(٢) سورة الأنعام/ الآية ٩١.

(٣) سورة الحجر/ الآية ٣.

يعبر القرآن الكريم عن هكذا أفراد بأنهم كالموتىٰ لا يؤثر كلام الرسول في قلوبهم. ويخاطب القرآن الرسول:

﴿إنّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَىٰ ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ﴾[1].

فالميت لا يسمع ولا يرى الحقّ ولا يدرك الحقائق بقلبهِ. ولهذا فإن تغلّب البُعد الحيواني أسوأ وأشدُّ ضرراً من أي مكروب سرطاني ومن كلّ كلبٍ وذئب ضارٍ.

لو درستم تاريخ المجتمعات البشرية منذ زمن آدم (ع) حتىٰ الآن، تَرَوْنَ أنّ الأفعال التي يقوم بها هؤلاء المنحرفون لا تصدر من أي ذئب أو كلب عقور. فيقتل قابيلُ أخاهُ هابيل بلا ذنب. وهذه أوّل جناية تحدث على سطح الكرة الأرضية، ويريد إخوة يوسف قتلَهُ ثم يلقونه في الجُبّ لقول أحد الأخوة.

ومن ثم يحصل على قدرة فيصنع القنبلة الذريّة، وبتفجيرها يقتل مئات الآلاف من الناس الأبرياء، لماذا؟ لأنه يريد الرئاسة. وعندما يصنع السفينة الفضائية ويعرج بها إلى السماء فهو يفكّر هل يمكن إيجاد مقرّ عسكري هناك أم لا؟ وهذه طريقة الإنسان الضالّ.

الإنسانُ شقيّ أم سعيد

نلاحظ اختلافاً كبيراً بين الفلاسفة في الجواب عن هذا السؤال. كان هذا الاختلاف بين الفلاسفة حتى قبل ميلاد المسيح (ع)، وهو هل الإنسان سعيد نظرياً أم شقيّ نظرياً؟ الذي يستفاد من القرآن الكريم هو يجب أن نقول بالتفكيك. أي أن هذا الإنسان من ناحية الروح والجانب الملكوتي سعيد فطرياً. ولكره من حيث الجانب المادي والحيواني شقي بالفطرة. لو عددنا غرائزه كلّها وجدنا أن الشقاوة كامنة فيه. يقول القرآن حول هذا البُعد للإنسان.

﴿إنّ النفس لأمّارةٌ بالسُّوءِ إلاّ ما رَحِمَ رَبّي﴾[2].

(١) سورة النمل/ الآية ٨٠.

(٢) سورة يوسف/ الآية ٥٣.

النفس الأمّارة هي ذلك البعد الحيواني للإنسان. وإنّ غرائزهُ وميوله لأمّارةٌ بالسُّوء، أي فيها شقاوة ذاتية. لذا قال البعض وخصوصاً الفلاسفة الذين ظهروا بعد الحرب العالمية الثانية في ألمانيا وكان أمثالهم موجوداً قبل الإسلام أيضاً، قالوا بشقاوة الإنسان الذاتية.

لذا يسيء الظن بعالم الوجودِ فيلسوفٌ كأبي العلاءِ المعرّي. وسبب ذلك هو عُقدةٌ حصلت لهُ. لذا أتمنّىٰ منكم أيها الأعزّاء أن تحيلوا دون حدوث عُقْدَة لأبنائِكم؛ لأنّ هذه العُقد تسبب جرائم كثيرة. وأحد أسباب تأكيد الإسلام على تربية الأطفال الأيتام هو هذا الأمر. احذروا من حصول عقدة للفقير في مجتمعكم، أو للطفل اليتيم. كان أبو العلاء المعرّي معقّداً لأنه وُلِدَ أعمىٰ كان نابغة فلم يتزوج وقد أساء الظن بالعالم والكون. وقد أوصىٰ بأنّ يكتبوا على قبره: هذا مَنْ ظلمه أبوهُ. أي أنّ أباهُ تزوّج وأنجبته أمّهُ، لكنّهُ لم يظلم أحداً لأنّه لم يتزوّج ولم يُنْجِبْ.

قال بعض العلماء: إن الإنسان شقيّ فطرياً، وكان اشتباههم أنّهم شاهدوا في الحرب العالمية الثانية أن أصحاب القدرة ارتكبوا جرائم كثيرة لحصولهم على الرئاسة، لذا أثّر هذا الأمر في عقائدهم ونظرتهم للإنسان وقالوا: إن الإنسان شقي بالفطرة.

يقول علماء الأخلاق والفلاسفة الإسلاميّون إن الإنسان سعيد بالفطرة ولعلّ قولهم هذا يعود إلى أنهم اهتموا وحققوا في البُعد الرحماني للإنسان. كلّ مولود يولد على الفطرة وقال ابن مسكويه رحمة الله عليه في كتابه الأخلاق: الإنسان كالماء لا سعيد فطرياً ولا شقي كذلك. ويجب أن نعرف إلى أي جانب يتّجهُ، إلى السعادة أم إلى الشقاوة.

ويقول الأستاذ الكبير المرحوم الآخوند رحمة الله عليه في الكفاية: بعض الناس أشقياء فطرياً، وبعضهم سعيد فطرياً. وهذا ما قيل ويقال. ويقول القرآن حول البُعد الملكوتي للإنسان:

﴿فإذا سَوَّيتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا له ساجِدينَ﴾.

ويقول حول بُعدهِ الحيواني:

﴿إنّ النَّفسَ لأمّارةٌ بالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبّي﴾.

الإنسان والاختيار:

الإنسانُ هو نتيجة وحاصل تفاعل هذين البُعدين وكلّ قِيَمِهِ تعود إلى اشتمالهِ على هذين البعدين. وزيَّنَ اللّهُ الإنسانَ بلباس الاختيار، ويمكن للإنسان نفسه أن يسمو إلى مقام أرفع من الملائكة أو يكون أضلَّ من الأنعام.

أيها الإنسان! إعلم أنّه لا يوجد في قاموسك لفظ اسمهُ (لا أعلم) و(لا يمكن). فلو شِئْتَ قدرتَ، ولو أردْتَ صارَ ما تريد. فكيفيّة وجود الإنسان حي بنحوٍ كلما أراد قَدِرَ، ولو شاء صار، ولو أرادَ عَلِمَ. لذا لا يُقْبَلُ من شخص يوم القيامة أن يقول لم أعلم أو لم أستطع او لا يمكن. وعند ذلك يذكرون له نماذج كثيرة. ويأتي الخطاب.

هلاّ عملتَ؟

لماذا لم تركب هذا البراق، هذه النعمة الكبرىٰ التي جعلتها لك حتى تصل إلى مكان تقلُّ الجنّة في عينيك؟ فلو قال لم أكن أعلم يأتوهُ بنموذج كان يمكنه فيه أن يعلم، وكم شاهدنا الأفراد الذين عاشوا في بيئة كالقفص ثم كسروها وحطّموها.

تحدثنا في البحث السابق عن زوجة فرعون وما فعلته في سجن حياتها مع فرعون. كان الفساد يحيط بها، فكان عليها أن تسحق غريزة حب المال والجاه في نفسها وتترك الجهاز الفرعوني الحاكم. وقد فعلت كلّ ذلك في سبيل الله، وحطمت كلَّ القيود والأقفاص. وعندما وقفت بوجه زوجها، أراد فرعون أن يضلّها اولاً بالكلام والموعظة والنصيحة (النصيحة الشيطانية)، فلم يجده ذلك نفعاً فبدأ بالتهديد والارهاب، ولكن دون جدوىٰ، وبالتالي جمع الناس وأمر بصلب هذه المرأة وعُلِّقَتْ بالمسامير وكانت تقول: أحدٌ أحد. ثم قالت: «ربِّ آجعل لي عندك بيتاً في الجنّة».

يقول القرآن بارك اللّهُ إلىٰ أين يصلُ البشر! أللهمَّ إنّما يؤلمني هذا السجن وبقائي مع فرعون. إلهي أحبُّ أن أكون بقربكَ فخلّصني من هذا السجن. فذهبت إلى جوار ربّها. فيمكن للإنسان أن يقطع في لحظة واحدة مسافة مائة عام. ذلك هو أسلوب آمرأة فرعون الواعية.

وأمّا عن مشّاطة فرعون، فإنها سلكت طريق التوحيد بواسطة امرأة فرعون أيضاً.

كانت هذه المشاطة تمشّط شعر آبنة فرعون وعندما بدأت بالتمشيط قالت: بسم الله الرحمن الرحيم. وهذه عبارة لم تسمعها البنت من قبل. قالت ما هذه العبارة؟ قالت لها: الحقيقة أنّ أباك رجل مُحتال ومُخادِعٌ يدّعي الربوبية. واللّهُ حقيقة أخرىٰ، الربّ هو ما يقولهُ موسى (ع)، حتى وصل الخبر إلى فرعون. ذكر في التاريخ أنّه جيء بهذه الامرأة مع أبنائها الأربعة، وقيل لها أمام الناس اتركي معتقداتكِ ونحن نحرّركِ. قالت: لا أترك. أحدٌ أحدٌ أحد، اللّهُ هو ربّ موسىٰ وفرعون كاذب.

فأشعلوا النار، وأمر بإلقاءِ أبنائها في النار الواحد تلوَ الآخر ولا زالت تقول أحد أحد.

فهنيئاً لمن كسرَ هذه القيود. حتى وصل إلى طفلها الرضيع، فتعسَّر عليها تقديم طفلها في سبيل الله، صرخ الطفل: أمّاه! وهي تقول أحد أحد.

عند ذلك ألقوا بالطفل وأمّهُ معاً في النار. وفي آخر لحظاتها أوصت بأن يُدفن رماد جسمها وأطفالها في مكانٍ ما، فقد ظهرت عاطفتها في تلك اللحظات أيضاً لكنها بقيت تردد: أحد أحد.

كان الرسول الأكرم (ص) يقول: عندما عرجتُ إلى السماء الرابعة اشتممتُ رائحة طيّبة نشرت في السماء. قلتُ ما هذه الرائحة؟

قال جبرئيل: يا رسول الله هذه رائحة آمرأة فرعون ومشّاطتهِ وأطفالها.

لذا لا يمكن للشخص أن يقول: لا أستطيع، فما أكثر الذين كانوا في

ضيق لكنّهم كسروا القيود، وحطّموا الأصنام. لو قررتم السفر إلى مدينة مشهد فما هي الأمور التي تقف أمامكم والمصاعب الكثيرة التي تواجهونها؟ من البديهي أن يكون في السير إلى الله وإلى عالم الملكوت مصاعب جمّة. ومن الصعب تسخير البُعد الحيواني وكسر القيود. فالذين لم يكسروا هذه القيود يتعسّر عليهم كسرها بعد ذلك.

الإنسان والمناجاة:

ذكرتْ في المثنوي جملة لطيفة جداً وهي خلق البشرَ للمناجاة والتضرع. وإن لم يفعل فعليه أن يتضرع ويبكي في جهنم. كلام جميل. لذا أقول لكم كسّروا القيود هذه، فإن كُسرتْ في هذه الدنيا فبها وإلاّ ستُكْسَر عند الموت وهذا أمر عسير.

نقرأ في الروايات عندما يأتي عزرائيل لقبض أرواح الذين لم يكسروا القيود، يكون قبض أرواحهم عسيراً جداً كسحب العروق أو الاضفار من الجسم. أتعرف معنى ذلك؟ عندما يتمسّك البعد المادي للإنسان بهذه الأرض ويريد أن يقطع هذا القيد يكون ذلك عسيراً عليه. وعزرائيل قاطع هذا القيد، فكل قيد أو حبل من هذه الحبال دليل على وجود صنم في القلب. فيكون هناك صنم واحد أحياناً هو المال. فعند الموت يتجسّم له ذلك الصنم ويستفيد الشيطان منه فيقطع عزرائيل ذلك العرق ويخرجه من الجسم.

قالت لي امرأة مؤمنة: قيل لشخص في حالة الاحتضار قلْ لا إله إلاّ الله، كان يقول: عباسي اثنين عباسي وعشرة شاهي، أيّ يعدّ النقود، لأنه كان يأكل الربا وكان أميّاً فكان يعدُّ بأصابعهِ فأخذَ يعدّ حتى قطع عرقُهُ وخرجت روحه من بدنهِ. وأخذَ منه هذا البُعد وهذا السجن الذي تغلّب على غريزتهِ الشهوانية.

يُذكر أن هارون عندما كان في حالة الاحتضار كان يقول خذوني إلى مكان مرتفع لأنظر. ومعنى ذلك هو أنّه يُراد سحب هذا العرق من جسمهِ. فكان يكثر النظر ويقول:

﴿ما أغنىٰ عنّي مالِيَه هلكَ عنّي سُلطانِيَهُ﴾[1].

هذا، أمّا لو أخذوا الإيمان دفعة واحدة فعلى الجميع أن يخافوا، الذين في قلوبهم وثنٌ وصنمٌ. الذين عندهم صنم الأهواء وحب المال وحب الرئاسة والشهوة، الذين تكون قلوبهم غابات في كل زاوية منها يكمن صنمٌ وليس فيها مكان لله عزَّ وجلّ.

يقول أحد علماء الأخلاق: أيها الناس! يقول الجميع: لا تشركوا، وأنا أقول: أشرك ولكن ليكن في قلبك مكان لله أيضاً. إنّ هذا القلب لله تعالى، وهذا البيت له تعالى. فأخرجتَ الله منه وأدخلتَ فيه الغاصبين؟ فاترك فيه موضعاً لله أيضاً. إن موت هؤلاء عسير جداً. فالشيطان يستفيد من كلّ فرصة حتى يأخذ الإيمان ويخرجه من قلوبكم.

الإنسان والموت:

حضرَ أمير المؤمنين (ع) والملك المقرّب لقبض روح شخص لكنّه لم يرد أن يرحل. حتى غادر الدنيا بغضب الملك المقرّب، وأمير المؤمنين (ع). كما يُراد إخراجكم من مجلسٍ وأنتم لا ترغبون. فكل مَن يأمركم بذلك أو يخرجكم تكونون عدوّاً له. وانّكم تُعادون مَن يخرجكم من دياركم ويأمر بإخراجكم. هل فكرتم بهذه الأمور لحدّ الآن؟ ألا يجب عليكم أن تتأمّلوا بهذه الأمور؟ لنحذر أن يأتينا عزرائيل عند الاحتضار ويحضر أمير المؤمنين (ع) ولا نراه جيداً لأنّ المرآة مكدّرة والقلب صدئ.

هل رأيتِ المرآة عندما تصدأ، لا تُظهر الوجه بوضوح؟ عندما يصدأ القلب لا يمكننا أن نرىٰ الإمام عليّاً (ع) والملك المقرَّبُ، وذلك أمر خطير.

حضر الرسول الأكرم (ص) عند شاب في حالة الاحتضار وقال: قلْ لا إله إلا الله، فلم يستطع، عرف الرسول (ص) أنّ قلبهُ قد صدئ بسبب الذنوب. قال هل له أمٌّ؟

---

(١) سورة الحاقة/ الآية ٢٩ و٣٠.

قيل: نعم. وجاءت أمُهُ. قال لها الرسول (ص): هل أنت راضية عن ابنكِ أم لا؟

قالت: لا. فقال لها الرسول (ص): إرضِ عنه. فأصلح عملهُ.

ثم قال للشابّ: قل لا إله إلاّ الله. فنطق لسانه.

قال له ماذا ترى؟ (والمراد هنا) قال: يا رسول الله أرى رجلاً مهيباً مرعباً وقبيحاً وضع يديه علىٰ عنقي وهو يضغط عليه. قال له: قُلْ:

يا مَنْ يقبلُ اليسيرَ ويعفو عن الكثير إِقبَلْ مِنّي اليسيرَ وآعفُ عن الكثير.

وقال له كرر ذلك. ثم قال له ماذا ترى؟

قال: يا رسول الله أرى شاباً جميلاً ذا رائحة طيبة ينظر لي ويعطيني ورداً لأشمّهُ.

قال الرسول (ص) خذ الورد. فأخذ الورد وشمَّهُ وطار إلى عالم الملكوت.

نستفيد من هذه الرواية من حيث العرفان الإسلامي والعرفان الفقهي والقرآن والروايات أنّ القلب عندما يصدأ وتملأه الأوثان يصعب الموت ويكون عسيراً على الإنسان.

ولاحتمالنا الخطر يكفينا أن لا نتصوّر عدم إمكاننا رؤية علي (ع) بهيئتِهِ عند الموت وان آحتمال واحد بالمليون يكفي لتغييرنا وتحوّلنا. لكي لا نقوم بفعل يغضبُ عزرائيل هذا الملك الجميل والرؤوف والمقدّس!

كانت عينا أمير المؤمنين تؤلمانه جداً فحضره رسول (ص) وقال له: يا علي! كأنّ عينيك تؤلمانك جداً؟

قال يا رسول الله: لم أتألّم هكذا في جميع عمري: فأراد الرسول أن يقول كلمة تُنسي الإمام علي (ع) آلامه. فقال: يا علي! عند قبض روح الكافر يأتي عزرائيل بقضيب من حديد ويُخرج روحه بِهِ، كالعرق الذي يسحبونه من الجسم.

نهض أمير المؤمنين (ع) وقال: يا رسول الله لقد نسيتُ الألم. كررها مرّة ثانية لكي لا يكون للألم معنىً عندي. ثم قال: يا رسول الله، وهل من أمّتك مَنْ يكون على هذه الحالة؟

قال: نعم. الظالم. ظالمٌ لِمَنْ؟ ليس الظالم هو الذي يظلم الآخرين ويفتكُ بِهِمْ. بل هذه درجة من الظلم. وليس الظالم هو الذي ينهب أموال الناس، وإن كانت هذه مرتبة من الظلم أيضاً. فأشدّ من هذين هو الظلم بالنسبة لشرف الناس وشخصيتهم. الذي يهتك أعراض الناس وشرفهم ويسحق شخصيتهم فذلك أكبر ظلم.

واذكر في ختام حديثي جملة مؤلمة، لا أريد التحدّث حول هذا الموضوع ولكن لا بد من ذلك فإنّي أرى نفسي مسوّد الوجه وقد صدأ قلبي فلعلّنا ننتبه ونستيقظ بواسطة هذه الجمل والعبارات فهي كالضربة التي يُضرب بها الذي يغشُّ عليه فينتبه.

كان أستاذنا الكبير قائد الثورة يقول: حضرتُ عند شخص من أهل العلم وهو يحتضرُ ففتح عينيه وقال: أنت يا فلان؟

قلتُ: نعم.

قال: ما أشدَّ ظلم الله!!

قلتُ: ماذا حدث؟ لماذا يكون اللّهُ ظالماً؟

قال: لأنه يريد أن يفرّق بيني وبين أولادي! نعم تصلْ حالة الإنسان إلى هنا إذا لم نستظلَّ بولاية علي (ع) والأئمة الأطهار (ع). انّه عاش ٧٠ عاماً بالفقر الذي يتحمله أهل العلم وبقي عندهُ قيدٌ لم يستطع كسرهُ وقطعهُ، فأصبح اللّهُ ظالماً عندهُ. فهو يغادر الدنيا واللّهُ والإمام علي (ع) غاضبان عليه.

وينقل آية الله الگلبايكاني قائلاً: حضرتُ شخصاً من أهل العلم وهو يحتضرُ ففتح الشيخ الكبير عينيه وقال: هذا أنت؟

قلتُ: نعم. قال: إنّ الله لظالمٌ حقاً.

قلتُ: ماذا حدث؟ قال: كنّا طُلاّباً معاً أنا وأنت، ودرسنا معاً وعُشنا معاً: فلماذا وصلت أنت إلى هذا المقام، وأصبحتُ أنا مغموراً وجليس الدار؟

﴿الهاكُمُ التكاثُرُ حتّىٰ زُرْتُـمُ الـمقابِرَ﴾[1].

ماذا تفعل أيّها السيد؟ ماذا تفعل نحن الطلاّب وأنتم التّجار والعمّال؟ ففي الصباح يذهب كلٌّ إلى عمله وأذهب أنا الطالب إلى درسي، وأنت تذهب إلى السوق حتى الظهر. وفي الظهر إنْ كنت مؤمناً فتبدأ بأداء الصلاة أولاً، ثم تتناول غذاءك، وبعدها تذهب إلى العمل والكسب وتزاول الأعمال النهارية حتى الليل وعندها تتناول عشاءك في الليل وتنام حتى الصباح، وتستيقظ في الصباح وتبدأ الأعمال مرةً أخرىٰ، وهكذا هو الحال في اليوم الثاني والثالث وفي العام المقبل، وهذا تكرار المكررات ومعناه هو هذا:

الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وإنه يستيقظ يوماً ويرى نفسه في حالة الاحتضار، وقد جاءه ملك الموت وأمير المؤمنين (ع).

﴿ربّ ارجِعون لعَلّي أَعَملُ صالـحاً فـيما تركتُ﴾[2].

ويأتيهِ الخطاب: ﴿إنّها كلمةٌ هُو قائلُها﴾[3].

إنه يقول هذه الكلمة بحسرة ولا أثر لها. وإنه خدع نفسه طوال ٧٠ عاماً.

﴿ومن ورائِهِمْ برزخٌ إلىٰ يومِ يُبْعَثُونَ﴾[4].

فاحذروا صعوبة ساعة الموت، وآعفوا عن كل شيء.

﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ إلـى ربّها ناظِرَةٌ﴾[5].

---

(١) سورة التكاثر/ الآية ١ و٢.

(٢) (٣) (٤) سورة المؤمنون/ الآية ٩٩ و١٠٠.

(٥) سورة القيامة/ الآية ٢٢.

الحسرة التي يستشعرها الإنسان الشيعي المُلقىٰ في النار أعظم من نظرة إلى اصحابهِ المجاورين لأمير المؤمنين (ع) لذا يقول لأصحابهِ أعطوني من الماء الذي تشربون (وهناك ينظر أهل الجنة لأهل النار وبالعكس) فيستهزىء بهم أهل الجنة ويقولون: إنّ هذا الماء حرام عليكم. ويقولون لهم: لقد وجدنا ما وُعِدْنا، فهل وجدتم ما وُعِدْتُم؟ فيقولون: نعم.

يقول القرآن بصوت مرتفع دائماً: لعنة الله عليك! خلق الله تعالى لك الجنّة، فتركتَ النبي (ص) وعلياً (ع)، وآتخذْتَ الشيطان وليّاً! فلعنةُ الله عليك.

التعادل في حياة الإنسان في نظر القرآن

كانت المقدمة الثالثة لبحثنا حول كون الإنسان ذا بُعدين، أحدهما ملكوتي ورحماني اسمهُ الروح، والآخر ماديّ بمعنى الجسم. يسببُ هذان البُعدان استكمال الإنسان وحصوله على مقام عند اللّهِ. وحتى يكون أهلاً لكي يخاطبه اللّهُ ويدعوهُ إليهِ.

إرضاء البُعد الرحماني:

الأمر المهم في رأي الإسلام هو إرضاء هذين البعدين وتغذيتهما. فكما أن البعد الملكوتي محتاج للتغذية والإشباع بنظر الإسلام فهكذا البعد المادي أي الجسم فيجب إشباع الغرائز والميول أيضاً. فلو هلك أو مات البعد الملكوتي للإنسان، ولم يُغَذّ فيهلك، ويصبح الإنسان أشدّ من الكلب المفترس. وهكذا لو لم يبادر لإرضاء البعد المادي أي الغرائز والميول، فلا يمكن للإنسان السير، وتحصلُ له عُقدة، ولا يقلُّ عمَّنْ مات بعدهُ الرحماني. لذا عندما نقرأ القرآن وروايات أهل البيت (ع) نشاهد أنهم كما أوصوا بإشباع الجانب الملكوتي أوصوا بإشباع الجانب المادي أيضاً، وكما أن الجسم يحتاج إلى الطعام صباحاً ومساءً، فكذلك البعد الملكوتي فيقول القرآن:

﴿أقِم الصلاةَ طَرَفي النَّهارِ وزُلْفا مِنَ الليلِ إنَّ الحَسَناتِ يُذهِبْنَ السَّيئاتِ﴾[1].

(١) سورة هود/ الآية ١١٤.

﴿إن الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ﴾ ليس معناها أن الصلاة تمحي الذنوب، مع أن هذا المعنى موجود، لكن يبدو هنا أن المعنى هو أقم الصلاة ليزول صدأ قلبك وتزول السيئات عنك.

﴿أقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمسِ إلىٰ غَسَقِ اللّيلِ، وقُرآنَ الفَجْرِ، إنَّ قُرآنَ الفجرِ كانَ مشهوداً﴾[1].

(وقرآن الفجرِ إنّ قرآنَ الفجرِ كانَ مشهوداً) لعلّ معناها هو أنّ جميع الخصائص الموجودة في صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء موجودة في صلاة الصبح، ولك صلاة أخرىٰ وهي صلاة الليل.

﴿ومِنَ الليلِ فَتَهجَّدْ بهِ نافِلَةً لكَ عَسَىٰ أنْ يبعثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾[2].

يقول القرآن الكريم في الآية ٤١ من سورة الأحزاب:

﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا اذْكُروا اللَّهَ ذِكْراً كثيراً﴾.

يقول الإمام الصادق (ع): جعل الله تعالى لكلّ واجب ومستحبّ حداً معلوماً، لكنه لم يضع حدّاً للذكرِ في هذه الآية. فقال صلِّ ١٧ ركعة في الصلاة الواجبة و٥١ ركعة صلاة مستحبة، وحجَّ حَجّاً واجباً أو مستحباً في السنةِ مرة واحدة، لكنه عندما يصِلُ إلى الذكر يقول: ذكراً كثيراً.

﴿بُكرةً وعَشيّاً﴾[3].

وبالتالي يقول بعد ١١ قسماً: **﴿قدْ أفْلَحَ مَنْ زكّاها﴾**[4].

لا توجد في القرآن عبارة كثرَ التأكيد عليها وأقسم الله لها ١١ قسماً غير هذه العبارة.

---

(١) سورة الإسراء/ الآية ٧٨.

(٢) سورة الإسراء/ الآية ٧٩.

(٣) سورة مريم/ الآية ١١.

(٤) سورة الشمس/ الآية ٩.

﴿وقد خاب من دساها﴾[1].

ثم يقول: **﴿فويلٌ للقاسِيَةِ قلوبُهُمْ مِنْ ذكْرِ اللَّهِ﴾**[2].

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾[3].

نظير هذه الآية كثير في القرآن، وهي توصي بالاهتمام بالبُعد الملكوتي، وتقول إن لمْ تفعل هكذا، يصدأ قلبك ويمتلئُ قساوة. ولنْ يُفْلِحَ أبداً. لذا ورد في الروايات أن الإنسان لو أذنبَ تحصل في قلبه بقعة سوداء، وأنْ لم يتبْ وعصىٰ مرة أخرىٰ تكبر تلك البقعة السوداء وتتوسّع، وإنْ شملتْ تلك البقعة جميع القلب فلَنْ يُفْلِحَ أبداً.

إشباع البُعد المادي:

كما آهتمّ القرآن بتغذية البُعد الملكوتي والمعنوي وقال: **﴿فويلٌ للقاسية قلوبُهُمْ من ذكرِ اللَّهِ﴾** فكذلك آهتمَّ بإشباع البُعد المادي والغرائز فقال **﴿يا بني آدمَ خُذُوا زِينتَكُمْ عند كلِّ مَسجدٍ وكُلُوا وآشرَبُوا ولا تُسرِفوا إنَّهُ لا يُحبُّ المُسْرِفينَ﴾**[4].

ثم يقول: **﴿قلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللَّهِ التي أخرجَ لعبادِهِ والطّيباتِ مِنْ الرزقِ﴾**[5].

أيها النبي قل للذين تركوا الزواج والأكل والشرب وآعتزلوا المجتمع كي يتركوا الدنيا قلْ لهم: إنّ أفعالكم هذه يهوديّةٌ. مَنْ قال يجب على المسلم أن يكون هكذا؟ قل مَنْ حَرَّمَ؟ ثم يقول هذه زينة اللّهِ وطيباتٌ من الرزق لكَ، وأنّها خُلِقتْ للإنسان المسلم. وإنْ استفاد منها الكافر فذلك لوجودك، وإنّ الله خلقها لك، وإن سبب وجودها هو وجودكَ أنت. انّ هذه النعم مشتركة بينك وبين الكافر في هذه الدنيا إلاّ أنها تختصُّ بك في الآخرة.

---

(١) سورة الشمس/ الآية ١٠.

(١) سورة الزمر/ الآية ٢٢.

(٢) سورة الزمر/ الآية ٢٢.

(٣) سورة الأعراف/ الآية ٣١.

(٤) سورة الأعراف/ الآية ٣٢.

﴿وَٱبْتَغِ فِيما آتاكَ اللّهُ الدّارُ الآخرةَ﴾[1].

أيها البشر كما تفكر بالآخرة وتستفيد من عقلك وقدرتك وعلمك وأموالكَ وشخصيتك لأجل الآخرة؛ فعليك أن تستثمر تلك القوىٰ لدنياك أيضاً. فيا أيها الإنسان لا تترك الدنيا.

ينقل المرحوم الملا محسن الفيض الكاشاني رحمة الله عليه رواية ويقول: وصل الخبر إلى الرسول (ص) بأنّ ثلاثة من شباب المدينة آعتزلوا الناس، نزلت آية من العذاب فخافوا، وتركوا المدينة وذهبوا إلى الصحراء يتعبّدون وقد نذر أحدهم أن لا يتزوّج أبداً، ونَذَر الآخر أن لا يأكل طعاماً لذيذاً أبداً. ونذر الثالث أن لا يعيش في المجتمع بعد.

برأي الإسلام، وبرأي فتاوى كلّ العلماء لا ينعقد هكذا نذرٌ؛ لأنّ النذر يجب أن يكون راجحاً، وبرأي الفقهاء إنّ هكذا نذر غير راجحٍ.

لم يبالِ الرسول (ص) بأن نذرهم خاطىءٌ أم لا، وكان المهمّ له هو منع البِدْعَةِ. لذا حضر المسجد في غير وقتهِ. وكان مسرعاً بحيث نُزعتْ عباءتهُ فكان أحد جانبيها على متنهِ والجانب الآخر يُسْحَبُ خلفهُ. جاءَ إلى المسجد مسرعاً. وأمر بلال أن يؤذنْ ويجمع الناس.

ما الخبر؟ اجتمع الناس وتركوا أعمالهم، وحضروا جميعاً رجالاً ونساءً ليتبيّنوا الخبر. وقف الرسول (ص) على السلّم الأول ليبيّن أهمية الحادث. وقال أيها الناس! إنني تزوجتُ وأنا نبيّ، ورغم أنني نبيّ فأنا أتناول الطعام اللذيذ وأحضر في المجتمع وأتّصلُ بالناس.

فَمَنْ رغبَ عنْ سُنَّتي فليسَ مِنّي.

لا يقبلُ الإسلامُ المسلمَ المنعزلَ:

مَنْ لم يكن كذلك فليس بمسلم: فلا يقبلُ الإسلامُ المسلمَ المنعزل.

---

(١) سورة القصص/ الآية ٧٧.

ولا يقبلُ الإنسانَ الكسول الجالس في زاوية من المسجد دائماً.

منذ اليوم الأول الذي وصل فيه أمير المؤمنين (ع) إلى الكوفة، دخل المسجد فرأىٰ مجموعة جلستْ في زاوية من المسجد. قال: مَنْ هؤلاء؟ قيل هم (رجال الحق). وكان ذلك جديداً علىٰ أمير المؤمنين (ع). فقال: ما معنى رجال الحق؟ قيل: إنهم يأتون إلى المسجد ويتعبّدون. فلو حصلوا على شيء أكلوه، وإنْ لم يحصلوا على شيء يصبرون.

قال أمير المؤمنين (ع) وهكذا يفعل الكلبُ. إنْ حصلَ على شيء أكَلَهُ وإنْ لم يحصل يصبر. ثم رفع الإمام سوطَهُ وضربهم به، وقال: ما معنى رجال الحق؟ انهضوا، اذهبوا واعملوا واكسبوا.

كان عُمر بن أذينة شيخاً فاضلاً من أصحاب الإمام الصادق (ع) الخواص وأحد تجار الكوفة. يظهر أنّه كان متعباً من العمل في السوق. وسبب هذا التعب يعود إمّا إلى ركود السوق أو العمل الكثير والمتواصل. فترك الكسب والعمل (لكنّه كان متمكّناً مالياً) وجاءَ إلى المدينة وحضر عند الإمام الصادق (ع). قال له الإمام كيف حالك يا عمر بن أذينة؟

قال تركت الكسب. تعجّب الإمام وقال: لماذا؟

قال يا بن رسول الله عندي ما يكفيني لطعامي وأريد أن أعتكف في المسجد عند كبري وشيخوختي.

قال الإمام: هذا منْ قلْةِ العقل. ثم قال: يا عمر بن أذينة اذهب وآعمل وتاجرْ، وأدِّ صلاتكَ في وقتها ونَوّرْ قلبكَ، وعندما تحصلُ على أجر عملكَ، فإن فاضَ عن حاجتك فأعطِهِ للآخرين. كُل من الطعام وأطعم الآخرين.

ينقل صاحب الوسائل رحمة الله عليه في المجلّد الثاني عشر من الوسائل روايات من جملتها أنه حضر عند الإمام الصادق (ع) في الكوفة مجموعة من التجّار.

سأل الإمام عن أحد أصحابهِ الخواص. قيل إنّهُ ترك العمل وآعتكف في

المسجد يصلّي ويتعبّد. فقال الإمام ثلاث مرّات: هذا مِنْ عملِ الشيطان. وكما قال لعمر بن أذينة من قبل قال لهذا: اذهب إلى السوق واطلب الرزق الحلال وأدِّ الصلاة في وقتها. فآعمل لدنياك ولآخرتكَ. وإنْ فاض مالك عن حاجتكَ فأعطِهِ إلى الآخرينِ ولا يصح الإنزواء والانعزال.

معنى الزهد في الإسلام:

ليس الزهد هو ما نتصوّرهُ نحن. ليس معنى الزهد في الإسلام هو أن ينعزل الفرد عن المجتمع ويترك الأكل والشرب والاتصال بالمجتمع ويترك الزوجة والأطفال وينشغل بنفسهِ فقط: فليس هذا معنى الزهد.

الزاهد هو أن لا يكون له قيد يقيّدهُ لا أن لا يملك مالاً. الزاهد هو مَن لا يقيّده قيّدُ حب الرئاسة لا أنْ لا يكون رئيساً. والزاهد هو الذي قطع وكسر كلّ القيود حتى يمكنه أن يفارق الدنيا عند الموت بسهولة.

قيل كلامٌ حول المرحوم أحمد النراقي صاحب معراج السعادة، والفقيه العظيم ومعلّم الأخلاق أنّه شاهد رجلٌ صوفي كتاب (معراج السعادة) وقرأ باب الزهد فيه ولم يفهمهُ. وبما أنّه كان معجباً بالمرحوم النراقي فقد جاء إلى كاشان من مكانٍ بعيد. كان المرحوم المحقق النراقي من الفقهاء الكبار حيث كان الشيخ الأنصاري رحمهُ الله من تلامذتهِ، درس عنده فترةً وكانت حوزة له في كاشان. كان وجيهاً وكانت له قدرة ورئاسة، وكان مرجعاً.

عندما حضر الرجل الصوفي، ورأىٰ هذه الإمكانات لا تتوافق مع الزهد، لأنّ المحقق النراقي كانت له رئاسة وقدرة، فتعجّب الرجل ولم يعرف الارتباط بين موضوع الزهد المكتوب في معراج السعادة وبين هذه الإمكانات.

مضتْ عدّة أيام، كان يرغب أن يسأل عما في خاطره لكنه كان يستحي، ولم يسأل. لكن المرحوم النراقي الذي كان رجلاً عالماً شعر منذ الساعة الأولى بما يدور في خاطر الرجلِ، وعندما أراد الصوفي الرحيل في اليوم الثالث، قال له المرحوم النراقي أين تريد الرحيل؟

قال: أريد الذهاب إلى كربلاء.

قال له: وأنا آتي معك. فتعجّب الصوفيّ وقال: إنني أتأخّر أياماً لكي تأتي معي؟

قال سآتي في هذه اللحظة. تعجّب الصوفيّ ودار في خاطره أنّه هل يمكن ترك هذه الأموال، والإمكانات والمرجعيّة دفعة واحدة.

قال المرحوم النراقي: نعم، انهض لنذهب الآن مشياً على الأقدام. نسي الصوفيّ صرّتهُ أو كيسهُ. توقفوا على بُعد أربعة فراسخ عند عين ماءٍ. تذكّر الصوفيّ صرّتهُ وأخذ يتابع الأثر حتى يعود، فقال المرحوم المحقق النراقي: ماذا حدث؟

قال: نسيتُ صرّتي.

قال: لا إشكال في ذلك. لنذهب إلى كربلاء وعندما نعود إمّا أن أشتري لك صرّة أخرى أو أعطيك صرّتكَ.

قال: كلاّ فإنني متعلق بصرّتي، ولا يمكنني الاستمرار بالسير دونها.

قال المرحوم النراقي: لا حاجة لرجوعك إلى كاشان.

قال: كلاّ. لا يمكن.

وهنا قال لهُ: وأنا لا أريد الذهاب إلى كربلاء، ومن هنا أعود، فلنَعد لأعطيكَ صرّتك. الفرق بيني وبينك هو أنني أملك مالاً ورئاسة وإمكانات لكنني غير متعلّق بها ولم تقيّدني، وأنت لا تملك أيّاً منها بل لك صرّة وكيسٌ ولكن أصبح هذا الكيس صنماً لك تعلّقت به.

لذا كان أستاذنا العظيم قائد الثورة ينصحنا دائماً ويقول: لو فرضنا أنّ هذا الخاتم لك، وأنت تستفيد منه سواء تعلّقت به أم لم تتعلّق. فما الدّاعي لكي يكون صنماً لك؟ أو أنّ هذه العباءة لي فأنا أحبها أو لا أحبّها فإنني أستفيد منها. فما السبب لتكون لي وثناً وصنماً؟

﴿ألهاكُمُ التَّكاثُرُ حتّىٰ زُرْتُمُ المقابِرَ﴾.

الزهد يعني عدم التعلق:

فالزهد في الإسلام يعني عدم ا ملق. فهو يملك المال لكن هذا المال لا يكون قيداً له. يملك المنصب والرئاسة ْكنّها لا تسيطر عليهِ. ولا يمكن لهذه الرئاسة أن تجعله كما يقول القرآن: ﴿اخلدَ إلى الأرضِ﴾ فعندهُ القدرة والإمكانات والمحبين في هذه الدنيا لكن ليس له قيد فيها. وآخر يملك خاتماً فقط وقد أصبح قيداً وصنماً له. ولا يملك إلاّ بيتاً واحداً وأصبح ذلك البيت قيدٌ له. أو ليس له سوى طفلٌ وزوجةٌ لكنهما قيدٌ له. لذا يقول القرآن لا يجوز قتل النفس. حتّى أنه حرّمَ بعض الأوامر التي تقرّها الصوفية حول تزكية النفس، يقول الإسلام: يجب محاربة النفس الأمّارة، ويجب مخالفة الأهواء النفسيّة وحب الرئاسة والمال وكل ما هو غير إلهي. الحب مختصٌ باللّهِ لذا يجب أن لا يكون في قلبه غير الله ويقول الإسلام: يجب أن يكون بنحوٍ لا يمتلك صنماً وقيداً، لذا يقول علماء الأخلاق حول أسلوب محاربة النفس: شخصٌ كذب، فهل يصحُّ أن يَقطع لسانهُ؟ أو شخصٌ اغتاب، فهل يصحُّ أن يضربَ نفسهُ ثلاثين سوطاً؟ كلاّ. أو يقطع شخصٌ يَدَهُ، لأنّهُ سرق فهذا ليس صحيحاً.

قتل الآخرين وقتل النفس كلّه حرام في الإسلام، والمهم هو المحاربة، والأهمّ منها هو التعادل.

الاعتدال في حياة الإنسان:

هو أن يستطيع الإنسان تسخير هذه الخيل المتمرّدة، بالالتفات إلى أنّه يحتاج إلى الغذاء فلو أردتم ركوب فرسٍ فإنّه يحتاج إلى شعير وتبنٍ. فإنّ لم تعطوه الغذاء لا يريحكم في الركوب. عندما يفقد الإنسان أحد أعضائهِ فإنّهُ يفقد قسماً من عقلهِ أيضاً. العقل السليم في الجسم السليم. فالإنسان المصاب بضعف الأعصاب لا يمكنه التفكير، ولا يمكنه تربية طفلهِ. والإنسان المصاب بضعف جسمي لا يمكنه أداء صلاة الليل، ولا يمكنه العمل في السوق لنفسه أو للآخرينِ. فكما يجب المحافظة على الروح والاهتمام بها يجب مراقبة

الجسم أيضاً. وإلى هنا لا إشكال في المسألة من وجهة نظر الفقهاء وعلماء الأخلاق والقرآن والروايات.

أول شيء يجب الاهتمام به هو أن تستفيد من الدنيا، ولكن لا يكون لنا ارتباط وتعلّق بها. فلا يتفق السير إلى الله مع التعلّق بالدنيا. وهذا هو كلام القرآن الذي يقول: رجالٌ لهم سيرٌ رفيع إلى الله، فمن هم؟ هم أفراد في السوق، وبين الناس، يعملون ويكسبون، لكن لا تلهيهم هذه التجارة عن ذكر الله أي لم يتعلّقوا بها. **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾**[1].

فيقول القرآن إنهم أبدان مطهّرة لها مقام محمود ورفيع. إنهم ساروا ووجدوا المقصود. فهم في محضر اللّهِ ويروْنَ الله حاضراً وناظراً دائماً فهُمْ:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[2].

إنهم يعملون ويتاجرون في الاسواق لكن لم تصبح التجارة قيداً لهم، وهم بين الناس لكن لم يكن الناس والأصدقاء والمحبين قيداً لهم «لا تلهيهم التجارة» تجارة هي من باب المثال أي لا يشغلهم عن الله أي شيء. فهم بين الناس ولكن لا يُشغلهُمُ الناس عن الله. ولديهم عمل ومال ومنصب ولكن جميعها لا تشغلهم عن الله. فحين الصلاة يُصلّونَ، ويهتمّون بالأعمال الأخرى في وقتها أيضاً.

﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[3].

فهم يُفكّرون بالآخرة وبالقبر وبعالم البرزخ وبالحشر والجنة والنار. يقول القرآن: يجب أنْ تكونَ في الدنيا. فالدنيا هي التي تُحيينا وإن الغرائز والميول هي التي توصلنا إلى مقامٍ رفيع. وان نحذر من التعلّق والارتباط بها.

---

(١) سورة النور/ الآية ٣٦.

(٢) سورة النور/ الآية ٣٧.

(٣) سورة النور/ الآية ٣٧.

الإسراف والتبذير:

الأمر الآخر هو أن لا نسرف ولا نبذّر، يقول القرآن. كن في الدنيا واستثمر الأطعمة اللذيذة والملابس والزينة الجيّدة. لكن احذر من الإسراف والتبذير. فإن ذلك يؤدي إلى هلاك المجتمع. يقول في سورة الواقعة:

﴿وأصحابُ الشمالِ ما أصحابُ الشمال﴾(1).

فهؤلاء يوم القيامة في العذاب والعسير، وفي نار جهنّم وبئس المصير.

﴿إنَّهُمْ كانُوا قبلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ﴾(2).

فهؤلاء مشؤومون وذنبهم عظيم وهو الإسراف والتبذير في هذه الدنيا. وكما يقول علماء الأخلاق إنهم توغّلوا في المشتهيات. وهذا بالنسبة للفرد. أما بالنسبة للمجتمع فإن القرآن يقول إن المجتمع المُسرِف والمبذّر سيهلك. فالإنسان المبذّر لا يضرّ نفسه فقط بل يضرُ الآخرين أيضاً. ويوصي الإسلام بعدم الإسراف من قبل الفرد والمجتمع. لا يجوز الإسراف في المجتمع كما لا يصح اللغو وغيره. فمن اللغو تحصل الغيبة والفتنة والتهمة وغيرها. وذُمَّ النوم الكثير في الإسلام: أبغضَ الناس عند اللّهِ النوّام. وليس معنى ذلك أنّ لا ينام الإنسان، كلاّ بل ينام بقدر حاجته، فتمنع كثرة النوم كما تمنع قلّته؛ لأن هذه النفس إنْ لم تُغذَّ تموت، وعندما تموت فإنك ستموت أيضاً في السجن ولا يمكنك السير والحركة إلى الله.

وذُمَّ الأكل الكثير في الإسلام أيضاً. أبغض النّاس عند الله الأكول. والآن ما هو الشيء الحسن في نظرة الإسلام؟ نظرة الى هذه الآية توضّح هذا الأمر، فيجب أن تكون هذه الآية قدوة للحياة، ولو جعلها الفرد أو المجتمع قدوة لحياته سيكون له اقتصاد سليم.

﴿والذّين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولمْ يقْتُروا وكانَ بينَ ذلكَ قَواماً﴾(3).

---

(1) سورة الواقعة/ الآية ٤١.

(2) سورة الواقعة/ الآية ٤٥.

(3) سورة الفرقان/ الآية ٦٧.

لا كثير الأكل ولا قليله، ولا كثير النوم ولا قليله، لا كثير الكلام ولا قليله. بل هناك اعتدال في كل شيء. وعندما يحصل التعادل يتحقق هدف الإسلام. فيجب إشباع البُعد المادي ولكن بشكل متعادل.

﴿يا أيُّها الذّين آمنوا لا تقدّموا بينَ يدي اللّهِ ورسُولِهِ﴾[1].

أي نقدّم أنفسنا على الله ورسوله، وننظر ماذا يقولان لنا. لا ماذا نقول «نحن». يقول الإسلام لا يجوز الإسراف والتبذير واللّهو لأنّه يهلك الإنسان والمجتمع ويؤدي به إلى النار.

إشباع الغرائز عن طريقِ الحلال:

الأمر الثالث هو أن الإسلام يقول يجب إشباع الغرائز بطريق حلال لا عن طريق الحرام. يقول القرآن في سورة الأعراف . الآية ٣٠:

﴿يا بني آدمَ خُذُوا زينَتَكُمْ﴾.

أي كن نظيفاً وذا شخصية في المجتمع.

تقول عائشة: كلّما أراد الرسول (ص) الخروج من المنزل ينظر إلى نفسه وإلى عمامته ولباسهُ فيُقال له: يا رسول الله! وهل يجب على الرجل أن يتزيّن أيضاً؟ يقول (ص): لا أحب أن يغتابني الناسُ.

فلا يصحُّ أن يدخل الإنسان بوصفه رجلاً مؤمناً، الى المسجد تفوح من فمه رائحة كريهة، أو يكون بملابس رثّة وممزّقة، لأن العدو يدخل من هذه الطرق. لذا يقول القرآن:

﴿يا بني آدم خذوا زينتكُمْ عند كلِّ مسجدٍ وكُلُوا وآشْرَبوا ولا تُسْرِفوا إنّهُ لا يُحبّ المُسْرِفينَ﴾[2].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَةَ اللّهِ الّتي أخرَجَ لِعبادهِ والطّيّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات/ الآية ١.
(٢) سورة الأعراف/ الآية ٣١.
(٣) سورة الأعراف/ الآية ٣٢.

﴿قلْ هِيَ للّذينَ آمنُوا في الحياةِ الدُّنيا خالِصَةً يومَ القِيامَةِ﴾[1].

إنّ الله خلقها لك، وأنت تبتعد عنها؟ فالمقصود هنا حيث يقول:

﴿قلْ إنّما حَرَّمَ رَبّيَ الفوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَنَ والإثْمَ والبَغْيَ بغيرِ الحقِّ وأنْ تُشْرِكُوا باللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطاناً وأنْ تقُولُوا علىٰ اللَّهِ مالا تعَلَمُونَ﴾[2].

ليحفظ الشباب الأعزاء هذه الجملة في أذهانهم دائماً وهي **﴿وأنْ تقولوا ما لا تعلمون﴾** ثم يذكر ما هو حرام في هذا الأمر. رأتْ عائشة إمرأةً حزينة. سألتها: أليس لكِ زوج؟

قالت: بلىٰ.

قال: إنْ كان لكِ زوج فلماذا أنتِ حزينة هكذا ولِمَ لمْ تلبسي الزينة؟

قالت: لقد تركني زوجي وذهب إلى الصحراء، نذر أن لا يتصل بآمرأة أبداً. وأحد أصدقائهِ نذرَ أن لا يأكل الطعام اللذيذ بَعْد، ونذر الثالث أن لا يعاشر الناس بعد ذلك.

أخبرت عائشة الرسول بذلك. فجاء (ص) إلى المسجد مُسرعاً بحيث كانت عباءته تُسحبُ على الأرض.

يجب أن تكون المرأة نظيفة، ولكن لزوجها، ولا تكشف وجهها للآخرين، ولا تلبس ملابس تثير الشهوة ولا تستعمل زينة لغير المحارم.

﴿قلْ إنّما حرَّمَ ربّيَ الفواحشَ ما ظَهَرَ منها﴾.

المقصود من (ما ظَهَرَ) هو هذا. ففي رأي القرآن لا يجوز إشباع غريزة الشهوة عن طريق الحرام، والزنا والنظر إلى نساء الآخرين، وأكل أموال الناس، والغشّ والمكرِ، والغلاء والاحتكار وغيرها. فهذه الأمور تهلك الإنسان، ولا تُشْبَع

---

(١) سورة الأعراف/ الآية ٣٢.

(٢) سورة الأعراف/ ٣٣.

هذه الغريزة عن طريق الظلم، والاعتداء على أموال الناس «والبغي بغير الحقّ»، ولا عن طريق الشرك (الشرك يعني عبودية الهوى والشيطان).

﴿وأنْ تَقُولوا علىٰ اللّهِ ما لا تعلمونَ﴾.

أي يذكر أفكاره. وتصوّراتهِ على أنها من الإسلام، أو يقول كلاماً لم يذكره الله تعالى ويريد بذلك إرضاء غرائزه وتسكين خاطره. وخلاصة الحديث هي أن الإسلام يقول يجب إشباع الغرائز ولكن لا عن طريق الذنب والحرام.

خلاصة البحث:

خلاصة البحث الثالث هو أن الإنسان موجود ذو بُعدين، وعليه إشباع هذين البُعدين. والأمر الذي يجب الاهتمام به هو عدم التعلّق بالدنيا. ولا نكونَ مسرفين ولا مبذّرين، ولا نرتكب الذنب في حياتنا.

الإيمان العاطفي:

لقد قررنا أن لا يكون في حياتنا تعلّق ماديّ، وكسرنا القيود وليس في حياتنا ذنب ولا معصية، ونريد السيطرة على البُعد المادي. ولكن من يستطيع إنجاز هذا الأمر المهم؟ نحنُ، أم عقلنا، أَمْ ضميرنا الأخلاقي، الناس أم القانون؟ هل يمكن لهؤلاء تسخير هذا الحصان المتمرّد بدون الإيمان بالله تعالى؟ فذلك لا يمكن لعقل الإنسان، ولا الوجدان الأخلاقي، ولا التربية والعلم والقانون. ولا الرقابة الاجتماعية، والقوّة الوحيدة التي يمكنها السيطرة على البعد المادي للإنسان وإيصاله إلى جوار الله. هي الإيمان الناتج عن العمل الصالح والتضرّع لله عزَّ وجلّ في ظلام الليل، الإيمان الناتج عن صلاة الليل وخدمة المجتمع، والذي رسخ في القلب، وهذا ما يُسمّىٰ بالإيمان العاطفي. الإيمان الذي يذكره الإمام السجاد (ع) في آخر دعاء أبي حمزة:

اللهمَّ إنّي أسألكَ إيماناً تباشرُ به قَلْبي. لا (إيماناً تباشرُ به عَقلي).

يكون الإيمان عقلياً أحياناً، وقد حصل على هذا الإيمان من أسفار الملاّ صدرا، ومن برهان النظام، وبرهان الحركة، وبرهان الصديقين، فالقلب يصدق

باللّهِ وبالمعاد ولكنّ هذا التصديق ليس بالاستدلال، بل جاء عن طريق الارتباط بالله تعالى. فكلما كان الارتباط بالله وثيقاً كلّما رسخ الإيمان في القلب أكثر. ويقول القرآن: أوّلُ مراتب هذا الإيمان والتصديق تؤدي إلى السيطرة على النفس، فكيف بذلك المقام الرفيع الذي يُسمّىٰ حق اليقين وعلم اليقين، يقول في القرآن: هنيئاً لمن عنده قوّة السيطرة هذه، فهي قوّة عظيمة.

أيها الشباب الأعزّاء! اعملوا للحصول على قوّة السيطرة هذهِ وإلاّ فلا شيء ولا أحد، يمكنه الوقوف أمامكم والسيطرة عليكم، ومهما كان القانون فإن البشر يسحقه ولا يلتزم به. ولو اتّحد العالم للوقوف أمام امرأة غير عفيفة لم يمكنه منعها. حتى لو راقب الزوج زوجته ليلاً ونهاراً، فإن كانت غير عفيفة وغير شريفة، فإنها تقوم بفعلها مهما كان الأمر. فما الذي يمكنه منعها والسيطرة عليها؟

العوامل الثمانية للسيطرة على القوى والغرائز الإنسانية

كان البحث في أن الإنسان يريد أن يكون بلا مانع وبلا حدٍّ، ﴿بَلْ يريدُ الإنسانُ ليفجُرَ أمامَهُ﴾[1]. يريد أن يفعل ما يشاء، ومن المسلّم أن ذلك يضرّهُ ويضِرّ مجتمعهِ. يجب أن يوضع حدّ لهذا الإنسان، فما هو الشيء الذي يمكنه السيطرة على الإنسان؟

العوامل الثمانية للسيطرة على الغرائز

ذكرنا ثلاث مقدمات لبحثنا، والآن ندخل في أصل الموضوع. فنذكر ثمانية عوامل يمكنها السيطرة على غرائز الإنسان:

١ ـــ **العقل**: قيل لو استطاع عقل الإنسان الناضج أن يميّز الحُسن والقُبح، فيمكن لهذا العقل السيطرة على الإنسان وهدايته.

٢ ـــ **العلم**: يقول أفلاطون في بيان خصائص مدينتهِ الفاضلة: لو أصبح الإنسان عالماً بالصفات الرذيلة والحسنة، ولو علمَ بأضرار الصفات الرذيلة وفوائد الفضائل الإنسانية، فهذا العلم يمكنه هدايته والسيطرة عليه.

٣ ـــ **الوجدان الأخلاقي**: سمّاهُ القرآن بالنفس اللّوامة، ويهتمّ به علماء الأخلاق والنفس. ويهتمُّ به القرآن كثيراً، ويقول لو كان الوجدان الأُخلاقي يقظاً لدىٰ الإنسان أمكنه هدايتهُ. هذه القوى الثلاث هي قوىٰ داخلية والآن نذكر القوى الخارجية.

---

(١) سورة القيامة/ الآية ٥.

٤ ـــ **التربية:** لو كان الإنسان متمتعاً بتربية إنسانية صحيحة أمكنُه هداية نفسه ومجتمعهِ. أي أن تلك التربية الصحيحة تهدي الإنسان والمجتمع.

٥ ـــ **القانون:** وتدور العصور الماضية وعصرنا الحاضر على أساسهِ، ويقولون: يمكن للقانون السيطرة على الإنسان والوقوف أمامه كي لا يصدر منه عمل قبيح وبالتالي يمكن للقانون إيجاد مدينة فاضلة.

٦ ـــ **الرقابة الاجتماعية:** أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المذكور في الإسلام، وقيل لو راقب الناس بعضهم الآخر في أقوالهم وأفعالهم. أمكن لهذه الرقابة الاجتماعية السيطرة على الإنسان وهدايتهِ.

٧و٨ ـــ **الإيمان:** وهو على قسمين: أحدهما الإيمان المرتبط بالعقل، والبرهان والاستدلال ويقال لهذا الإيمان في الفلسفة «العلم». العلم بوجود الله، العلم بالنبوّة، والمعاد والإمامة فيحصل هذا العلم عن طريق البرهان، فمثلاً برهان الصدّيقين للملاّ صدرا يثبت وجود الله تعالى. أو برهان نظامهِ المأخوذ من القرآن ويثبت وجود الله، أو حركته الجوهرية التي تثبت المعاد الجسماني. قيل لو حصل الإيمان العلمي، فهذه القوّة يمكنها هداية الإنسان وإصلاحه. لأنّ الإنسان لو حصل على العلم بالمبدأ والمعاد، فذلك العلم يهديه ويصلحهُ.

القسم الثاني للإيمان وهو القوّة الثامنة، الإيمان العاطفي أو القلبي لا العقلي. ويقال له في الفلسفة (المعرفة) ومعناها هو أن الإيمان المربوط بالعقل لا يمكنه هداية الإنسان وإصلاحه. والذي يمكنه ذلك هو الإيمان الراسخ في القلب والذي صدّقه القلب. فالعقل أحياناً يعتقد بوجود الله. فهل يمكن لهذا الاعتقاد والتصديق أن يكون قوة هادية ومسيطرة أَمْ لا؟ كلاّ، لا يمكنه. تارة يصدّق العقل بوجود المعاد وتارة يصدّق القلب بذلك. فهذا الاعتقاد هو غير اعتقاد العقل ويسميه القرآن (يقيناً). «اللهمَّ إني أسألكَ إيماناً تباشرُ به قلبي» لا (تُباشرُ به عَقلي). قيل إنّ الذي يمكنه هداية هذا الحيوان ذي الرجلَيْن هي القوّة الثامنة فقط أي الإيمان القلبي والعاطفي، ولا يحصل هذا الإيمان عن طريق البرهان، بل يحصل عن طريق العمل، وترك الذنب واجتنابهِ، وأن يقوّي جذور

الإيمان في قلبهِ. وأن يروّض نفسه على صلاة الليل، والصلاة في وقتها، والاهتمام بالمستحبات بالأخص خدمة الآخرين. وهذه الأعمال تقوّي جذور الإيمان في القلب.

الايمان القلبي:

إننا نعتقد بعدم تمكن أي فرد وأي شيء من هداية الإنسان وإصلاحه غير هذه القوة الثامنة أي الإيمان العاطفي. فالعقل والعلم والوجدان الأخلاقي مُعطّلٌ هنا. والتربية رغم أنها صحيحة لكن لا تنفع عندما تطغىٰ الغريزة. ولو أراد الإنسان القيام بفعلٍ لا يمكن للقانون الوقوف أمامه. ولو طَغَتْ غريزة حب الرئاسة عند الإنسان فلا يمكن للإيمان العقلي الوقوف أمامها، ولأجل الوصول إلى هدفهِ يترك القرآن جانباً فضلاً عن ترك أسفار الملاّ صدرا.

كان عبد الملك بن مروان ملقباً (بحمامة المسجد)، وكان يلازم المسجد، وبين يديه القرآن عندما وصلهُ خبر رئاستهِ. وضع القرآن على الأرض وقال: كنت معي لحدّ الآن، ومنذ الآن لستَ معي.

فالذي يمكنه تقييد الإنسان وهدايته والسيطرة عليه هو الإيمان العاطفي والقلبي فقط. فلو حصل هذا الإيمان في القلب، فحتىٰ لو طَغَت كلّ الغرائز فهو كالجبل لا تحرّكه الرياح. وتكون الغرائز كالرياح أو الأمطار التي تهطل على شجرة مُسِنَّةٍ ولا يمكنها قلعها. المؤمنُ كالجبل الراسخ والإيمان هنا هو القوة الثامنة. عاطفةُ الغريزة الجنسية وغريزة حب المال والأولاد والرئاسة والشهرة وغيرها، رغم أنها عواطفٌ شديدة لكنها لا تؤثر في الجبل الراسخ (إيمان المؤمن).

ولكن يجب البحث حول كل هذه القوى والقيود الثمانية وتقييمها. لذا نبدأ البحث بأول قوة وهو العقل.

تعريف العقل

ما هو العقل؟ لا يعرف حقيقة العقلِ أحدٌ. لا نعرف حقيقة هذا الجوهر

الثمين في نظر الإسلام والقرآن. لذا يقول القرآن لا يمكن إدراكه. وما يدرك من مفهوم العقل هو أن الفكر ثمرة العقل. ويُقالُ للشخص المتفكر عاقلٌ. لذا يقول الإمام الصادق (ع): الفرق بين العاقل والأحمق هو أن العاقل يقول كلاماً موزوناً ويؤدي فعلاً موزوناً أيضاً، فهو يفكّر أولاً ثم يقول أو يفعل، لكن الأحمق بعكس ذلك. يتحدث أو يفعل بلا وزن ولا حساب، فهو يفعل أولاً ثم يندم على تصرفه.

لو سُئِلْنا ما هو العقل؟ نقول يمكننا أن نذكر آثاره، وتعريف آثاره هو أن ثمرته جيدة وحسنة. ويقول القرآن: إنّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يعقِلُونَ. وقد تكرر هذا الكلام في القرآن في تعريفِ العقل بالآيات تذكر آثارهُ فيقول: إنّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَومٍ يعقلِون القومِ يتفكّرون. وأمثال ذلك. فما هو العقل؟ سُئِلَ الإمام الصادق (ع) عن العقل، فقال:

العقلُ ما عُبِدَ به الرحمانُ واكتسبَ به الجنان.

ويقول القرآن على لسان أهل النار:

﴿لو كُنّا نسمَعُ أو نَعْقلُ ما كُنّا في أصحابِ السعيرِ﴾[1].

هذه الآية تُعرّفُ العقلَ بذكر آثاره أيضاً وتقول العقل هو ما يمكن للإنسان بواسطته أن يغادر هذه الدنيا بسلامة. وهنيئاً لمن خرج من هذه الدنيا سليماً وله دِين ويكون في الدنيا متفكراً بالقبر والقيامة والجنة والنّار. وبرأي القرآن أن العقل هو أن يميّز الإنسان العاقل الحَسن، من القبيح، فيفعل الحَسنَ ويترك القبيح.

﴿فبشِّرْ عبادِ الَّذينَ يَستَمعونَ القَوْلَ فيتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ﴾[2].

فالعقلاء هم الذين يتبعون الحَسنَ ويتركون القبيح.

---

(١) سورة الملك/ الآية ١٠.

(٢) سورة الزمر/ الآية ١٧، ١٨.

أقسام التقليـد:

يوجد في مقابل الإنسان العاقل، الفرد المجنون، والذي يبينهُ القرآن أيضاً وهو المُقلّد. والتقليد على قسمين: أحدهما هو الذي يحكم به العقل والفطرة، كتقليد الجاهل للعالِم وهذا أمر فطري. فمثلاً لو أردتم شراء بيت تعرفون ثمنه. فإن عقلكم يأخذكم لا إرادياً نحو المعمار والمهندس. ولو حدث عطل في كهربائكم فإن عقلكم يدلكم على مهندس الكهرباء، أو لا تعرفون المسائل الدينية فإن العقل يدلّكم على الفقيه أو رسالة المجتهد الجامع للشرائط وهذا من المسلّمات. لذا يقول الفقهاء في مسألة التقليد: إن دليله فطري.

والقسم الآخر للتقليد يقع في الآداب والعادات الاجتماعية. في الأمور التي يدركها عقل الإنسان بفكره وتحقيقهِ ويحكم عليها. فالتقليد قبيح في هذه المسائل، وبتعبير القرآن انّه جنون وحمق. بالنسبة لأصول الدين يمكن للإنسان بقليل من التفكير والتأمّل أن يدرك وجود الله تعالى ومعجزة القرآن وضرورة المعاد. لا يجوّز القرآن التقليد في أصول الدين. كما لا يصح التقليد في الأفعال الأخرى (غير التي ذكرناها). يقول القرآن عندما يقال لهؤلاء أسْلِمُوا، يقولون: **﴿إنّا وَجَدْنا آباءَنا علىٰ أمّةٍ وإنّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدونَ﴾**[1].

إنهم يقولون: كان آباؤنا عبدة للأصنام وعلينا أن نعبد الأصنام أيضاً، والتقليد في هكذا مسائل مضرّ جداً أي في الأمور التي يدركها العقل والفكر، لكن الإنسان لا يتّبع عقله ويغلق أبواب الفكر والتأمّل ويقلّد الآخرين.

في المثنوي قصة لطيفة لأولئك الذين يقلّدون الآخرين والقصة هي، ذهب درويش إلى مقرّ الدراويش الذي يُجرونَ فيه مراسم تصوفهم. ولم يكن لدىٰ الدراويش عشاءٌ في تلك الليلة فقرّروا بيع حمار ذلك الدرويش وإعداد طعام لهم.

باعوا الحمار وأعدّوا الطعام. اجتمعوا وأكلوا وكانوا يردّدون: ذهب

---

(١) سورة الزخرف/ الآية ٢٣.

الحمار، ذهب الحمار.. أي بعنا حمار هذا الدرويش وأكلنا الطعام بثمنهِ.

لم يكن الدرويش يفهم ما يقولون، ومع ذلك كان يردد معهم بحرارة ونشاط بالغ! وبعد انتهاء المراسم ذهب الدرويش إلى الخادم يريدُ حمارهُ.

قال الخادم لقد بِعْنا حمارك وهيئنا الطعام.

قال الدرويش: ماذا تقول؟

قال لم يكن ما نقيم به وليمة حفل وضيافة، فبِعْنا حِمارك وأعددنا بثمنهِ الطعام وأكَلْنا.

فقال: لماذا لم تقلْ لي؟

قال أردتُ أن أقولُ لكَ، لكنني وجدّتُكَ أشدهم فرحاً وأعلاهم صوتاً وأنت تقول: ذهب الحِمار، ذهب الحِمار، ذهب الحمار.

فالتقليد بهذا النحو أمرٌ مضرٌ للمجتمع ويعبر القرآن عنه بالجنون.

وأسوأ من هذا، الإتّباع بلا اختيار وبلا إرادة، بحيث لو سُئِلَ عن سَبب هذا الإتباع لا يعلم به، لكنّهُ يقع تحت سيطرة وآختيار فردٍ آخر بلا اعتراض، أي لا أثَر للإرادة في أعمالهِ. يُشَبِّهُ القرآن هؤلاء الأفراد بالغنم:

﴿ومَثَلُ الّذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الّذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ﴾[1] ثم يقول: **﴿صمٌّ بُكْمٌ عميٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾**[2].

يقول علماء النفس تصوَّروا قطيع الأغنام، ضعوا عموداً في وسط الطريق فالشاة الأولىٰ تقفز لوجود سدٍّ في الطريق، وهكذا تفعل الثانية والثالثة والعاشرة. ثم ارفعوا هذا العمود عن الطريق، فإن بقية الغنم عندما تصل إلى هنا تقفز أيضاً، وهكذا تفعل جميع الأغنام، في حين أن الأولى عندما قفزت كان أمامها مانعٌ لكن لا يوجد مانع لباقي الأغنام. قدَّمَ القرآن هذا العمل وقال: أيها الإنسان

---

(١) ، (٢) سورة البقرة/ الآية ١٧١.

المسلم! عليك أن تكون عاقلاً ولا تكون مقلّداً، إلاّ التقليد الذي لا إشكال فيه. كالتقليد في الفقه الإسلامي للمجتهد الجامع للشرائط. فلو قيل لنا: ما هو العقل؟ نقول إنّ ثمرته الفكر وغذاءُهُ العلم. وإنّ وظيفتهُ الحصول على الجنة وعبادة اللّهِ.

فضيلة العقل:

ذكرت روايات أهل البيت، (ع) أن القرآن أكّد على العقل كثيراً ومَدَحَهُ.

﴿فَبَشِّرْ عبادِ الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ﴾.

يقول أولاً: بَشِرْ العالم بالسعادةِ، ثم يقول:

﴿أُولئِكَ الَّذينَ هَداهُمُ اللّهُ وأولِئكَ هُمْ أولُوا الألْبابِ﴾[1].

إنْ لم يكن للعقل والعاقل امتياز غير هذه الآية المتكررة في القرآن (أكثر من ٥٠ مرّة) والتي تقول: **﴿كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يَعْقِلُونَ﴾**[2]. فهي كافية له. ونستفيد من هذه الآية الشريفة أن احد أهداف نزول القرآن هو تربيةِ العقل والعاقل واحترامهما.

يذكر المرحوم الكليني رحمهُ الله في بداية أصول الكافي حدود ٣٠ رواية في فضل العقل. أول رواية هي عندما خلقَ اللّهُ العقل تحدَّثَ معهُ، فقالَ: أقْبِلْ فأَقْبَلَ، ثُمَّ قالَ أدْبِرْ فَأَدْبَرَ.

(أي التسليم تماماً) ثم جاء الخطاب من جانب الله تعالى وعزّتي وجلالي لم أخلق أفضل منك ومنحتُ العقل لمن أُحبّهُ، ثم قال بِكَ أُثِبُ وبكَ أعاقبُ.

يذكر الإمام موسى بن جعفر (ع) رواية لهشام بن الحكم ويقول في ضمنها: إنَّ للّهِ على الناس حجتين: حجّة ظاهرة فهي الأنبياء، وحجّة باطنة فهي العقل.

---

(١) سورة الزمر/ الآية ١٨.

(٢) سورة الروم/ الآية ٢٨.

وهذه الرواية كافية لبيان فضل العقل. فلا قيمة للمال والمنصب والإمكانات في مقابل ذرّة من العقل. لذا يقول الإمام الصادق (ع): أُفٍّ لقومٍ لم يسعوا لإكمال عقولهم. العلمُ يسقي العقلَ، هذه الدروس تقوّي العقل، كما إنّ الغوص في الدنيا وأعمالها يُميت العقل ويقتله تدريجياً حتى يفقدهُ الإنسانُ.

وبالتالي يقول الإمام الصادق (ع) في رواية: إن العقل هو ما يُقاس به العمل، وإلاّ لو كان الإنسان غير عاقلٍ فلا قيمة لأعماله مهما كثرت، ثم يضرب الإمام مثالاً ويقول: كان رجل يعبر في جزيرة فمرَّ ملكٌ من هناك، ورأىٰ العابد مشغولاً بالعبادة، لكنّهُ رأىٰ ثوابه قليلاً جداً. تعجّب لهذه العبادة الكثيرة والثواب القليل! لذا قرر بأن يذهب إلى العابد ويتحدّث معهُ، فجاء المَلَك إلى الجزيرة وبقي مع الرجل يوماً وليلةً. فرآهُ يعبد كثيراً وبنشاطٍ، قال له المَلَك إنك تعبد كثيراً وهذا مكان مناسب للعبادة.

قال العابد: نعم، مكان مناسب، ولكن فيه عيب واحد، وهو لو أعطانا الله حِمارةً لنرعىٰ هنا لكان جيّداً!

هل يمكن للعقل أن يمنع الغرائز:

إن لم يكن الإنسانُ عالماً ومتفكّراً بل، يلتفُّ حول نفسه كدودة القز في هذه الدنيا ويفكّر بالحصول على المال والشهرة والعيش المرفّه و...، فإنه يفقد عقله تدريجياً. حتى أنه لا يعود يفكر حتى بالنظافة في آخر عمرهِ.

قال رجل: حدث في مدينة إصفهان قحطٌ، فذهب الخبّازون إلى رجل ثري يملك الحنطة وقالوا له: هل لديك حنطة؟

قال بِكَمْ تشترون الحُقّة؟

قالوا: تومان واحد مثلاً، قال زِيدوا. قالوا: ١٢ ريالاً، قال: زِيدوا، قالوا: ١٥ ريالاً قال: زيدوا، قالوا: تومانان، قال زيدوا، وكلّما زاد الرجال، قال الرجل الثري زيدوا وبالتالي لم يُعْطِهم حنطةً.

انتهى القحط والغلاء. وبعد فترة تألّمت رِجل هذا الرجل الغني ولم

يمكن معالجته عند الأطباء والمستشفيات حتى جيء بطبيب من الخارج. فرأىٰ رجلَهُ وقال: يجب قطعها. خاف الرَجُلُ ووضع يدهُ على إبهام قدمهِ وقال من هنا؟ قال الطبيب: أزيدُ، أو زِدْ. صعد مسافة ثم قال من هنا؟ قال لا، زدْ. وصل إلى الساق لم يرغب في قطع رجلهِ حتى وصل إلى الفخذ وقال الطبيب نعم من هنا تُقطع. وقُطعت رجلُهُ في اليوم الثاني، ولكن لم ينتهِ ألمُهُ وماتَ. فإن كان للإنسان عقلٌ، هل كان يصلُ إلى هنا؟ يدخل النار ويحترقُ ويقول: لو كنّا نسمع أوْ نعقِلُ! ففكّروا بالقبر قبل أن تناموا جميعاً وبالأخص كبار السنّ.

قال الإمام موسى بن جعفر (ع): ليس منّا مَنْ لمْ يحاسبْ نفسه.

فيا أيُّها التاجر والعامل الذي لك دفتر حساب يومي وسنوي، ضع دفتراً لأقوالك وأفعالك وكنْ عاقلاً واستخدم عقلك. وحاسب نفسك عند النوم وآنظر هل كنتَ من أهل الجنة في يومك أم لا؟ فقد تجتمع الذنوب وتصبح من أهلِ النار!

فهل يمكن لهذا العقل بفضلهِ ومنزلتهِ أن يمنع الغرائز ويقف بوجهها؟ وهل يمكنه هداية الإنسان والسيطرة عليه؟ في الحالات الاعتيادية نعم. فلو كان الإنسان عاقلاً ولم تعصفْ غريزته الجنسية، يمكن للعقل تقييد هذه الغريزة لكي لا يفقد الإنسان عفّتهُ. فالمرأة العاقلة عفيفة. وأن عقلها وعفّتها في الحالة العاديّة تصبح سدّاً أمام الذنب. فلو عَصَفتْ الغريزة والشهوة الجنسية فعند ذلك ينعزل العقل.

يقول تعالى:

﴿ولقَدْ هَمَّتْ به وهَمَّ بها لولا أنْ رَأىٰ برهان رَبّهِ﴾[1].

يقول إنْ لم تكن عصمتي ولم يكن (برهان ربّهِ) لَصَبا إلى زُليخا. (برهان ربّهِ) آخر مراتب الإيمان. للإيمان القلبي مراتب سنتحدث حولها مستقبلاً. أول مراتبه علم اليقين وآخرها حقّ اليقين.

(١) سورة يوسف/ الآية ٢٤.

أهمية العلم في الإسلام

كان بحثنا عن رغبة الإنسان في أن يكون حُراً، وهذا غير ممكن، ويجب أن تُقيَّد غرائزهُ، ما الذين يمكنه تقييدهُ؟ ذكرنا ثمانية أمور بهذا الصدد. كان أحدها العقل وقد تحدّثنا عنه، وهو موجود شريف يمتاز به الإنسان عن سائر الحيوانات.

يمكن للعقل السيطرة على الغرائز في الأحوال العاديّة، ولكن لو طَغَتْ الغريزة فلن ينفع العقل. والعقل هو كالسدّ الترابي للماء، فإنْ لم يطغ الماء فإن هذا السدّ الترابي كافٍ لهذا الماء ويمكنه السيطرة عليهِ وحفظهِ للاستفادة منه، ولكن لو حدث طوفان وطغىٰ الماء، فلا يمكن لذلك السدّ الوقوف أمام ذلك السيل الهادر فالغريزة بمنزلة الماء يمكن للعقل السيطرة عليها في الحالات العادية. لكن لو طَغَتْ هذه الغريزة، كالماء الذي يتبدّلُ سَيْلاً فلا يمكن للسدّ الترابي أن يقف أمامه، فعندما تطغىٰ الغريزة لا يمكن للعقل السيطرة عليها. ويلزم لتقييدها أمرٌ آخر وهو الإيمان بالله، الإيمان بالمبدأ والمعاد، الإيمان القلبي، أي الإيمان الذي يحصل للإنسان عن طريق التقيّد بالشرع، الإيمان الذي يحصل عن طريق الصلاة والصوم والحج والجهاد والخمس والزكاة والتعاون وبالأخص اجتناب الذنب فهو سدٌّ محكمٌ أمام الغرائز العاصفة. فمهما زاد طغيان الغرائز يمكن لهذا السد الوقوف أمامها ودفعها. وفي الحقيقة لو حصل للإنسان إيمان قلبي لا يَدَعَ الغرائز تطغىٰ، فعند ذلك يعرج العقل ويصل إلى أقصىٰ مسيرته وهو الله تعالىٰ.

أهمية العلم:

البحث الآخر حول العلم. يقول أفلاطون وتلامذته: لو أصبح الفرد أو المجتمع عالماً، فإن علمه يكون سدّ محكماً في مقابل الغرائز، ولذا يقول أفلاطون في مدينته الفاضلة: لو جعلت الفرد أو المجتمع عالِماً أمكنك السيطرة عليه، لو حصل الإنسان على العلم بالمفاسد والمصالح أو العلم بالأخلاق الرذيلة والفضائل الإنسانية، فعند ذلك يكون الفرد أو المجتمع مصوناً ولنعرف هل كلام أفلاطون هذا صحيح أم لا؟

وإن للتعليم والتعلّم اهمية عظيمة في الإسلام بحيث اعتبر القرآن الثلاث والعشرين سنة التي نزل فيها القرآن مرحلة تعليم وتعلّم. يقول الشهيد الثاني رحمة الله عليه حول سورة العلق التي نزلت في ابتداء النبوة حسب المشهور: هذه السورة بمنزلة البراءة والاستحلال. وإنها تعيين برنامج ٢٣ سنة للرسول الأكرم (ص)، وقد ذكر فيها القراءة، والقلم والتعليم والتعلّم والمعلّم والمتعلّم.

﴿إقرَأْ وربُّكَ الأَكْرَمْ الَّذي عَلَّمَ بالقلَمِ عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١].

لذا فبقول هذا الفقيه وأستاذ الأخلاق الشهيد الثاني رحمةُ اللّهِ فإن برنامج النبي هو التعليم والتعلّم. ويذكر في سورة الجمعة أن الهدف هو هذا:

﴿هو الذي بعثَ في الأميّينَ رسُولاً مِنهُمْ يَتْلُو عليهِمْ آياتِهِ ويزكيهم ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمة﴾[٢].

جاء الرسول بالمعجزة، وهدف الرسول والقرآن هو التربية والتعليم، ونقرأ في الروايات أن الرسول (ص) قال مراراً: بُعِثْتُ للتعليم. كما قال: بُعِثْتُ لأتمّم مكارمَ الأخلاقِ.

يكتب الشهيد عليه الرحمة، دخل الرسول المسجدَ. وكانت جلسة للقرآن، فمرَّ عليها، وكان بعدها مجلس دعاءٍ، فمرَّ عليه أيضاً وآجتازهُ، وكان

---

(١) سورة العلق/ الآية ٣ و٥.

(٢) سورة الجمعة/ الآية ٢.

بجانبه ذكرٌ وورِدٌ، فاجتازه أيضاً، حتى وصل إلى مجلسِ أهل العلم، فجلس عندهم وقال ثلاثاً: بُعِثْتُ للتعليم.

التعليم والتعلم في الإسلام:

بنظرة قصيرة إلى الكتب وبخاصة كتاب بحار الأنوار للمرحوم العلاّمة المجلسي رضوان الله عليه الذي له فضل كبير على الشيعة، نرى أنّه جمع في مجلّد واحد روايات أهل البيت (ع) حول التعليم والتعلم وفضيلة التعلّم. وأول رواية يذكرها المرحوم الكليني في أصول الكافي هي حول العلم أي أنها أول رواية في ٧ ـ ٨ مجلّدات من أصول الكافي. يقول لقد نقل هذه الرواية كل من الشيعة والسنة وهي: طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَةٍ.

وكان (ص) يقول: إنّ الله يحب مراكز التعليم، لذا تذكر الروايات أنّ الملائكة تحضر في هذه المجالس، وتفرش أجنحتها لطالب العلم وتفتخر في السماء بأنها فرشت أجنحتها ليجلس عليها المعلم والمتعلّم، وقد أبغضَ الإسلام التسامح في التعليم والتعلّم فجاء في الروايات: مَنْ لم يتفقّه في الدّين فهو أعرابيّ.

وهذا إنذار عظيم، فالجاهل الذي لم يَسْعَ للتعليم والتعلّم ليس بمسلم، وإنْ قال أنّه مسلم، لكنّه من رجال زمن الجاهلية. ليتَهُ قال انّه كافر. فكفر زمن الجاهلية كفرٌ خاصٌ مليءٌ بالانحراف. كفرُ وأد البنات، والقتل والنهب والانحراف والفساد ويقول القرآن: كانوا منحرفين بحيث كانوا يطوفون حول الكعبة وهم يرقصون ويلهون. تقول هذه الرواية مَن لم يهتم بدِينهِ من حيث التعليم والتعلّم فهو أعرابيّ. ثم يقول: ﴿**لا ينظُرُ إليهِمْ يومَ القيامَةِ**﴾[1].

وهذه العبارة إنذار أهمّ من إنذار العبارة الأولى. الويل لمن لا ينظر إليه الله في الدنيا أو الآخرة وكان دعاء الرسول (ص) هو:

اللّهُمّ لا تكِلْني إلى نَفْسي طرفةَ عينٍ أبَداً.

---

(١) سورة آل عمران/ الآية ٧٧.

مَن كان جاهلاً أو لا أبالياً بالنسبة للعمل والصلاة و...» فلا ينظر إليه الله نظرَ لطفٍ. كان الرسول الأكرم (ص) يقول: الويل للمسلم الذي لا يستعدُّ للتعليم والتعلم حتى يوم الجمعة. وبالتالي الكمال كل الكمال التفقّه في الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة.

نقلتْ هذه الرواية عن النبيّ وعن الإمام أنه كان يقول: الإنسان الكامل هو الذي يتّصف بالصفات الثلاث: أولاً يعرف المسائل أي يعرف كل ما يرتبط بالدين.

ثانياً: يتّصف بالإستقامة والصبر.

ثالثاً: يكون معتدلاً لا مسرفاً ولا بخيلاً لا إفراط ولا تفريط.

يطرح القرآن في سورة (يس) مسألة (انطاكية)، وهي مدينة مهمة جداً، فيقول:

﴿واَضربْ لَهُمْ مثلاً أصحاب القَريةِ إذْ جاءَها المُرْسَلونَ﴾[1].

ثم يقول:

﴿وجاء مِنْ أقصىٰ المدينة رجلٌ يسعىٰ قالَ يا قومِ اتَّبِعوا المُرسَلينَ﴾[2].

قبل وصول النبي أو الرسل الثلاثة إلى المدينة اما كانوا أنبياء أو رسلُ عيسى (ع)، لكن يبدو أنّهم كانوا أنبياء، وقبل أن يأتي فيها العالِم، كانت قرية. واضربْ مثلاً أصحاب القرية، وعندما جاء الأنبياء فيها قال: وجاءَ مِنْ أقصىٰ المدينة رجلٌ. فأصبحت مدينة.

إنّ مدينة قم في الاربعين أو الخمسين سنة هذه خرّجت أكثر من آلاف المدرسين والمبلّغين والعلماء. وعلى أهل قم أن يفتخروا بذلك. فمن وجهة نظر

---

(١) سورة يس/ الآية ١٣.

(٢) سورة يس/ الآية ٢٠.

القرآن أنّ للمدينة حضارة لأنّ فيها علماً، وتخرّج مراجع التقليد للعالم. لأنّها تُقدّم أستاذاً عظيماً كقائد الثورة الذي كان طالباً فيها.

ويقول القرآن الكريم: لو مات العالِمُ أو خرج من المدينة تقلُّ قيمتها وتنقص فيقول:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنّا نأتي الارضَ نَنْقُصُها مِنْ أطرافِها﴾[1].

يقول الإمام السجّاد (ع) لو مات العالِمُ في قرية أو مدينة تقلُّ قيمتُها وينقص وزنها، فهنيئاً للعالِم. تفسُّرُ هذه الخلاصة إلى حدّ ما، آيات القرآن وروايات أهل البيت (ع). إنْ لم يصبح الإنسان عالماً أو متعلّماً على الأقل فهو (هَمَج) كما يقول أمير المؤمنين (ع) و(رُعاء) على قول الصادق (ع).

الإنسان الجاهل:

يقول الإمام الصادق (ع):

الناس ثلاثة: عالمٌ أو مُتعلّمٌ أو رُعاءٍ.

ويقول الإمام أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة:

الناس ثلاثة: إما عالِمٌ أو متعلِّمٌ أو هَمَج.

«الهمج» بعوض يتواجد في الليل ويسبب الإيذاء. ولكن لو هبّ نسيم فإنّه يَفرُّ. بما أنّ هذا النسيم ليس بريح شديد لكنّهُ يُبعد البعوض. فمن أي جهة يأتي الهواء فإنّها تذهب من تلك الجهة. فالإنسان الذي لم يكن عالماً فهو «رُعاء» و«هَمَج» بقول أمير المؤمنين (ع) والإمام الصادق (ع).

يقول أمير المؤمنين (ع): الإنسان الجاهل إما يسير باتجاه الإفراط أو التفريط وبذلك يضرُّ نفسه ويضرُّ الآخرين.

فكل المصائب منذ زمن آدم (ع) وحتى الآن، تتعلّق بهذا الأمر. وسبب

---

(١) سورة الرعد/ الآية ٤١.

كل المصائب هو الإنسان الجاهل. الجاهل الذي لا يمكنه حفظ توازنه وتعادله. الجاهل إمّا مفرطٌ أو مفرّط.

إن لم يكن الإنسان عالماً أو متّبعاً للعالم، فإمّا أن يَظْلِمُ أو يُظْلَمُ. وهدف الاستعمار منذ البداية هو جعل الناس في الجهل، ليمكنهم استخدامهم لمنافعهم. ويتواجد الآن النظام الاستعماري في الدول الإسلامية بكثرة، ليجعلهم في الجهل ويحول دون تعلّمهم، ثم يستخدمهم ويمتصّ منهم كالدودة ثم يقول لهم: أحسنتم. فتأمّلوا. فإنّ أمريكا تمتصُّ نفط بعض الدول في حين أن هذه الدول تتشكر منها وتقول لها أحسنتِ. أتذكّر أنني كنتُ أتحدّث مع أحدهم، كان يقول: يجب أن لا تقولوا (الموت لأمريكا!) لأنها تخدمنا. فنحن نلبس الملابس الأمريكية، ونستعمل من المبرّدات الأمريكية، فهي تتعب ونحن نرتاح! فهي تخدم كثيراً ويجب إثابتها! فهذه نتائج الأنظمة الاستعمارية دائماً.

الانسان الجاهل ينوي الثواب والإصلاح، لكنّ أعماله تصير ذنوباً وتسبب التخريب. تأمّلوا في هذه الأمثلة التي هي مرآة لأفكار المجتمع، مثال صداقة الدُّبِّ. يُقال إنّ صاحبه قال له: اعملْ، فرأىٰ ذبابة وقفت على وجه صاحبهِ فتألَمَ وأراد إبعادها، فحمل حجراً وضرب رأس صاحبه، ليقتل الذبابة. فالجاهل كذلك، يريد فعل الخير فيصير ذنباً وشرّاً.

قال الإمام الصادق (ع). مدحوا شخصاً أمامي فأردتُ رؤيتهُ. فخرجتُ مرّة من البيت فرأيتُ رجلاً قد اجتمع الناس حوله وقيل لي: إنه الشخص الذي أردت رؤيتهُ.

تابعتُ الرجل، وما انّ رآني حتىٰ تركني وذهبَ. ذهبتُ وراءهُ. أردتُ أن أراهُ وحده. فذهبَ إلى محلِ بيع الرمّان، فسرق رمّانتين وخرج، ثم ذهبَ إلى الخبّاز وسرق قرصين من الخبز. ثم ذهبَ إلى خربةٍ وتصدّق بما سرقَ لأربعةِ فقراء. وعندما أراد الخروج من ذلك المكان أمسكتُ يدهُ وقلت: لماذا فعلتَ ذلك؟

قال: ماذا فعلتُ؟

قلتُ: رأيتُ كلّ شيء.

قال: مَنْ أنتَ؟ عرّف نفسكَ!

عرّفتُ نفسي. قال. أنت ابن رسول الله ولا تعرف المسائل؟ ألَمْ تقرأ القرآن؟

قلتُ: وأي قسم منهُ؟

قال: ﴿مَنْ جاءَ بالحسنةِ فَلَهُ عشرُ أمثالِها﴾[1]. وأنا سرقتُ أربعة أشياء فيكتب لي ٤ ذنوب لكنني تصدّقتُ بها، فكل رمّانة تعادل ١٠ حسنات، وكل قرص خبزٍ يعادل عشر حسنات، فأربعون حسنة وأربعون ثواباً في مقابل أربع معاصٍ، فيبقىٰ لي ٣٦ حسنة.

يقول الإمام الصادق (ع): قلتُ لهُ: أيْ حسابٍ قُمْتَ به؟ فإنك لم تحصل على ثواب بل ارتكبتَ ثمانية ذنوب. أربعة منها للسرقة، وأربعة بالتصرف بأموال الناس من دون إذنِهِمْ.

فهكذا تكون أفعال الجاهل، لذا ذكر في روايات أهل البيت (ع) كلام طويل حول العلم والتعليم والتعلّم، ويقول رئيس المحدّثين المرحوم الصدوق رحمهُ الله، الرجل العارف بروايات أهل البيت (ع) في أعمال ليلة القدر: إن فضيلة الثلث الأخير من ليلة القدر أكثر وأفضل من أول الليلة وثلثها الأول والثاني. فالثلث الأخير أفضل الأوقات في جميع أيام السنة. يقول الصدوق رحمهُ الله، في اجتماع المجتهدين والعلماء والعارفين بالدين وقيل ما هي أفضل الأعمال في الثلث الأخير من الليل؟ قال الجميع: التعليم والتعلّم.

هل يمكن للعلم تنظيم الغرائز والسيطرة عليها؟

والآن هل بإمكان العلم مع فضيلته هذه أن يقيّد الغريزة؟ في الأحوال العادية: نعم، لأننا نرى قلة الجرائم عند العالم أو الذي يرتبط عمله بالعلم

(١) سورة الأنعام/ الآية ١٦٠.

والعالم حتى وإن كان ذلك لحفظ شرفهم وشخصيتهم. مثلاً إنّ التّجار المعروفين والاشراف لم يروا مركز الشرطة ولا المحكمة أبداً. وإنّ العلماء الربانيين والصالحين بعيدون عن الشرطة والمحاكِم. وسبب ذلك هو أن العلم والتعلّم والمتعلّم يسيطر على الغريزة في الأحوال العاديّة لكن لو طَغَتْ هذه الغريزة فلا حيلة بيد العلم.

يظهر أنّ أفلاطون نظر إلى نفسهِ وإلى تلامذتهِ ولم يعلم أنّ كل جرائم العالم هي بسبب العلم، ومن المذاهب التي ظهرت فيه وعُرِضَتْ للنّاس (كمذهب فرويد). ورغم أنّ مذهب فرويد أبْطَلَهُ تلامذتهُ لكنّ آثاره المخرّبة باقية لحدّ الآن ولعلّها ستبقى إلى ١٠٠٠ عام أخرىٰ. استهتار العصر الحاضر يعود إلى العلم وإلى نظرية فرويد، لأنه يقول إنّ مَرَدَّ كل الغرائز إلى الغريزة الجنسية حتى آمتصاص الطفل لثدي أمّهِ يعود إلى الغريزة الجنسية. ثم يقول أحد تلامذته: لو أصابك الجوع، فتُفَضِّل المرأة الجميلة للأكل أم للأعمال الجنسية؟ وهذا كلام لطيف جداً. أبطل مذهب فرويد، لكن آثارهُ المخرّبة كبيرة جداً.

ويمكن التأمل في مذهب دوركيم وهو يهودي كما كان فرويد يهودياً. ما أكثر المصائب التي جرت على البشرية بسبب اليهود. فكلّ هذه المذاهب حتى مذهب ماركس (وهو يهودي) هي من صُنع اليهود وهم يعلمون أنّ مذهبهم باطل ولعلّ فرويد كان يعلم ببطلان مذهبهِ لكنّهُ يقول يمكن إشاعة الفساد بهذه الطريقة. ومذهب دوركيم أسوأ من هذا، وقد أبطل بواسطة تلامذتهِ وقالوا أنّهُ تحدث بخلاف العقل والفطرة.

ماذا فعلت نظرية ماركس للمجتمع؟ انّه حقّر المجتمع والإنسان واعتبرهُ بلا قَدْرٍ ولا منزلة. عندما كنتُ أُطالع في (رأس المال) لماركس ذكرتُ مسألة تيمورلنك.

يقال أنّ تيمورلنك ذهب إلى الحَمّام، جاءهُ الخادم ليغسلهُ فنظر إليه وقال: أيّها الخادم! ما هي قيمتي وبِكَمْ أُقَدَّر؟

قال: سيدي أنت تقدّر بمائة تومان.

قال: أيّها الأحمق! إنّ المئزر الذي أرتديه يعادل ١٠٠ تومان، وأنت تقول إنّ قيمتي مائة تومان؟

قال: سيدي قدّرْتُكَ مع المئزر وقلتُ مائة تومان!

نرى أن ماركس اعتبر الإنسان بقَدَر آلة وضيعة لا أكثر. وكما يقول أستاذنا العظيم قائد الثورة، إن منشأ كل بدعة هو العلم. فإنّ لم تَطْغَ الغريزة فإن العلم يقيّدها، ولكن لو طغتْ غريزة حبّ الرئاسة، لحصل نتيجة ذلك ماركس وفرويد، ويحرق المجتمع، ويحصل من جرّاء ذلك (الميرزا محمد الباب مؤسس فرقة البهائية) وكما يقول القرآن لا يفيد علمهُ شيئاً، ويقول لو طغتْ الغريزة فيكون هو حماراً وعلمهُ حملٌ لا ينفع.

﴿مَثَلُ الّذينَ حُمّلوا التوراةَ ثمَّ لـمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الـحِمَارِ يحملُ أسْفـاراً﴾[1].

طغيان الغرائز والإيمان القلبي:

يذكر القرآن في سورة الأعراف قصة بلعم بن باعورا. ولها معنىٰ عجيب في رواياتنا. ماذا ينتج من طغيان الغريزة؟ أرجو من الجميع وبالأخص التجار عندما يخرجون في الصباح من بيوتهم أن يلجأوا إلى الله تعالى من طغيان الغرائز. مثلاً لا تغضبوا، وإنْ توقّفتْ أعمالك فلا ربط لذلك بزوجتكَ وأطفالك والمتردّدين على محلّ عملكَ، فلا تغضبوا، فإنّ خطابكَ لامراة عجوز يبعدك عن رحمة الله فنعوّذ بالله من غضب الربّ.

ليعلمَ الشباب والتجّار أنَّ ما يغضب الله ويزيدُ غضبه هو القلب المكسور، وإنْ كان الإنسان منحرفاً؛ لأنّ الله يحبُّ عبادهُ وإنْ كانوا جاهلين. فلا تجزعوا عند المصائب فالشجاع هو الذي لا يجزع ولا ييأس عند النكبات،

---

(١) سورة الجمعة/ الآية ٥.

لا يمكن للعقل والعلم لوحدهما أن يوصلا الإنسان إلى ساحل النجاة فما هو الشيء الذي يمكنه إيصال الإنسان إلى المقام الرفيع؟

كاشف الغطاء إنسانٌ عالِمٌ، كان جالساً في محرابه وهو مرجع تقليد. فجاءهُ فقير بلا حياء وطلب منه شيئاً فلم يعْطِه، فبصق الفقير بوجه كاشف الغطاء. فلأجلِ أن يُطفيءَ غضب الآخرين وقف في المحراب ورمىٰ بعباءتهِ جانباً وقال: كلُّ مَن يحبُّ كاشف الغطاء فليعطِ هذا الرجل نقوداً. فذهب بنفسهِ وجمع مالاً من المصلّينِ وأعطاهُ للفقير، ثم قال له: اعذرني لأنني أغضبتكَ!

ما الذي يمكنه إيصال الإنسان إلى هذه المنزلة؟ وسُئِلَ مرّةً عن عصمة الأنبياء والأئمة الأطهار (ع) وأظهروا تعجّبهم من كون الإنسان معصوماً دائماً.

قال كاشف الغطاء ببيان وكلام حقيقي: أنا بنفسي وطوال ٤٠ عاماً لم أفعل حتى مكروهاً واحداً. إذاً فما هو الشيء الذي يمنح الإنسان هذه الحالة. هكذا عمل يصدر عن الإيمان القلبي لا الإيمان العقلي الذي يذكر ٤٠ دليلاً لإثبات وجود الله لكنّه لا يرى الله.

لتوضيح هذا الأمر نذكر قصة بلعم بن باعورا. كان رجلاً مؤمناً وعجيباً، حتى أن علي بن إبراهيم رحمةُ الله يقول إنه كان مُستجابُ الدّعاءِ لكن الإيمان لم يرسخ في قلبهِ. يظهر أنّه وصل لتلك المنزلة عن طريق العلم وحصل على الاسم الأعظم. فإنه كان قدّيساً ما لم تطغَ الغرائز، ولكنه عندما حصل على الاسم الأعظم وارتكب بواسطته أعمالاً غير صالحة.

دعاهُ فرعون إليه. وعندما عرف بلعم بن باعورا أن الذهاب إلى قصر فرعون يمنحه المقام والشهرة والمال قَبلَ دعوتهُ، فقرر أن يذهب إلى فرعون مع حمارهِ في اليوم التالي لكنه كلّما أراد الذهاب توقّف الحِمار عن الحركة، حتى أنّه نزل عن الحمار وضربه ضرباً شديداً حتى ماتَ. ونسي الاسم الأعظم. سأل الله حاجاتٍ مخجلة لم يسألها حتى المجنون ثم أبغضه الله حتى شبّههُ القرآن بالكلب. وشبّهه في تلك الآية المذكورة بالحِمار.

﴿وآتْلُ عليهِمْ نَبَأَ الّذي آتيناهُ آياتِنا﴾[1].

سحق علمهُ عند طغيان الغريزة أي لم يتمكن العلم من منع الغريزة.

﴿فانسلخَ مِنها، فَأَتْبَعَهُ الشيطانُ فكانَ مِنَ الغاوين﴾[2].

﴿ولَوْ شِئنا لَرَفَعْناهُ بِها، ولكنّهُ أخلَدَ إلىٰ الأرضِ وآتّبَعَ هواهُ﴾[3].

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلبِ إنْ تحمِلْ عَليهِ يلهَثْ أو تتركْهُ يَلْهَثْ﴾[4].

خلاصة الحديث:

وخلاصة الكلام هي أنّ تحصيل العلم واجب على الجميع.

فالعلم حسنٌ لكنهُ غير مفيد لمنع الغرائز عند طغيانها، وذلك يلزمهُ قوة أخرىٰ. يلزم لذلك إيمانٌ كإيمانِ كاشف الغطاء. أرجو من الجميع وبالأخص الشباب الأعزّاء أن نعاهد أنفسنا بالالتزام بظواهر الشرع وذلك يحتاج إلى جهد كبير. ولنسقِ شجرة الفطرة والايمان ونثبّتُ جذورها كي لا نضِلَّ، وهذا هو الطريق للحصول على الدنيا والآخرة. لا سبيل للسعادة إلاّ الإيمان القلبي، ولا يحصل الإيمان القلبي إلاّ بالالتزام بظواهر الشرع وبالالتزام بالصلاة والصوم، والإنفاق وخدمة الآخرين واجتناب الذنوب لأنّ الذنب مهما كان صغيراً فإنّه سمٌّ خطير يقتل بذر وشجرة الإيمان.

---

(١) سورة الأعراف/ الآية ١٧٥.

(٢) سورة الأعراف/ الآية ١٧٥.

(٣) و (٤)سورة الأعراف/ الآية ١٧٦.

آثار الوِجْدان الأَخلاقي

العامل الثالث للسيطرة على الإنسان وضبطِهِ هو النفس اللّوّامة ويُقال لها الوجدان الأخلاقي وقد أكّد عليها علماء علم الأخلاق وعلم النفس وبالأخص علماء علم النفس في الأمور التربوية.

حقيقة النفس اللّوّامة:

المراد من النفس اللوّامة هي الوجدان. ولا نعرف حقيقتها، كما لم نعرف حقيقة العلم وعرفناهُ عن طريق آثارهِ. فهكذا الحال في الوجدان الأخلاقي والنفس اللوّامة، لا تُعرَفُ حقيقتها، ولكنّ أعمالها واضحة ونعرف عن طريق آثارها إنّ في وجود الإنسان توجد حالة اسمها النفس اللّوامة أو الوجدان. وظيفة النفس اللّوامة هي التشويق قبل الأعمال الحسنة والترغيب حين العمل والتحسين بعد إتمامهِ. فأنتم تملكون الوجدان والنفس اللّوامة، فإنْ قررّتم فعل الخير فإن قوّة بَاطنية تشوّقكم لذلك ولا تجيز لكم تأخيرهُ وعندما تفعلونه ترغبكم لإِتمامهِ وعندما يتمُّ العمل تُبارك لكم بحيث تشعرون بنشاط وسرور من القيام بذلك الفعل.

فمثلاً لو قررتم تزويج ابنتكم وتجهيزها. فعند تصميمكم على هذا الفعل تحسّونَ بقوة في وجودكم تشجعكم عليه. وعندما تبدأون به ترغّبكم على القيام بسائر جزئياتهِ وعندما تتزوج ابنتكم، تشعرون تلك الليلة براحة وسرور، وكأنّ قوةً داخلية تمجّدكم، فعمل الوجدان عند فعل الخير هو: التشويقِ قبل العمل، والترغيب حين العمل، والتمجدِ بعد إتمامهِ.

ولكن عند فعل السوء: التهديد قبل العمل، والمنع والكفّ في حين العمل، واللّوم بعد إتمامهِ. فلو قرّر الإنسان الذي له وجدان على التخلّف أو الغش، مثلاً لو قرّر التاجر والوجدان على الاحتكار وعدم بيع السلع عند ذلك توجد حالة في داخلهِ تهدّدهُ من القيام بذلك الفعل. وللعمل أثر في تصميم الوجدان وبقدر علمه يهدّده الوجدان ويخوّفه من الدنيا والآخرة. وفي كل الأحوال يستخدم كل الوسائل لإبعاده عن ذلك الفعل والحيلولة دون القيام بهِ. ولكن لو قام بذلك الفعل، فإنّه يمنعه ويكفّهُ عنهُ. أي أنّه إنْ لم يوفّق في المرحلة الأولىٰ فإنّه يبقىٰ يهدّده في المراحل الأخرى حتى ينتهي الفعل وعند ذلك يبدأ الوجدان ضرباته وعقوبته، ويقول له، إنك مسلمٌ، لماذا استعملت الغش والاحتكار في معاملتك؟ لماذا فضحتَ الآخرين؟ فضربات الوجدان هذه شديدة جداً بحيث أنها تؤدي إلى ضعف الأعصاب أو الجنون. نعرف كثيراً من المجرمين جنّوا بسبب ضربات الوجدان وسوطهِ.

النفس اللّوّامة في نظر القرآن:

ينظر القرآن إلى النفس اللّوامة باعتبار قوّة لومها. فإنه يسميها النفس اللّوّامة، لأنها تلوم بعد العمل.

برأي العلم. إن الوجدان الأخلاقي أساس كثير من الأعمال ويمكن القول بأنه موضوع علماء الاجتماع واستفاد منه علماء الأخلاق. اهتمَّ الإسلام بالوجدان الأخلاقي كثيراً. ويكفي لبيان أهميتهِ أنْ أَقْسَمَ به القرآن الكريم، وعلاوة على ذلك جعله مجاوراً ليوم القيامة وأقسم بهما معاً.

﴿لا أُقْسِمُ بيوم القيامةِ ولا أُقْسِمُ بالنّفسِ اللّوّامةِ﴾[1].

لعل المراد من جعل يوم القيامة والنفس اللوّامة مع بعض هو عدم وجود أي اشتباه في يوم القيامة. فلا يتبدّل أهل الجنة بأهل النار ولا يدخل أهلُ النار الجنةَ، ولا يوجد في ذلك اليوم غش ولا ظلم للحقوق، ولا يمكن دخول الجنة

---

(١) سورة القيامة/ الآية ١ و٢.

بالقوّة. ولا تؤخذ رشوة. لذا يشير القرآن إلى هذه الموارد في آيتين. يقول في ابتداء سورة البقرة (الآية ٤٨):

﴿واتّقوا يوماً لا تَـجْزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً﴾ لا يوجد اشتباهٌ.

﴿ولا تُقْبَلُ منها شفـاعةٌ﴾ لا توجد واسطة ولا شفاعةُ شفيعٍ.

﴿ولا يؤخَذُ منها عَدْلٌ﴾ لا تؤخذ رشوة.

﴿ولا هم يُنصَرونَ﴾ ولا توجد قوّة.

إن أسلوب يوم القيامة هذا وطريقته هذه توجد في النفس اللوّامة أيضاً. لا تشتبه النفس اللّوامة، وأقسم بها في سورة الشمس، ويتبيّن أهميتها ضمن القسم بها ويقول:

﴿ونفسٍ وما سوّاها﴾.

يقسم بالنفس اللوامة التي لا تشتبه، وهي تميّز الخير من الشر، فهي موجود شريف في نظر القرآن.

الوجدان الأخلاقي والعاطفة:

تتعلق غالبية الأعمال الخيّرة بهذا الوجدان؛ لأنّه إنْ لم يوجد الوجدان، لم توجد العاطفة وتعساً لأمّةٍ أو فردٍ أو أسرةٍ لا تعيش العاطفة في وجودها. تعلمون أنّ العصر الحاضر بكل حضارته وعلومه يغوص في أوحال الشهوة والفساد ولا أحد ينجيه وسبب ذلك هو انعدام العاطفة في قلوبهم. والوجدان والنفس اللوّامة ووجود العلم فيها بدلاً من هذه. للعاطفة أهمية كبيرة في نظر الإسلام، وإن العاطفة والوجدان يعينان يوم القيامة.

العلاّمة المجلسي رحمه الله، ذلك الرجل العظيم الذي خدم الإسلام كثيراً، والذي يقول عنه أستاذنا العظيم قائد الثورة، إنّهُ جعل شاه عباس في خدمتهِ.

قيل في حضوره مرّةً: لماذا صار العلامة المجلسي من أهل البلاط

الملكي؟ قال: كلاّ، إنكم مُخطئون! قولوا شاه عباس خادم العلامة المجلسي.

كاشف الغطاء، الشيخ البهائي، والمجلسي الأول، خدموا الإسلام حقيقة بالأخص العلاّمة المجلسي. وقال أحد أهل السنّة لا تقولوا المذهب الجعفري بل قولوا المذهب المجلسي. كان أستاذنا المرحوم العلاّمة الطباطبائي رحمهُ الله يقول لو قرأ أحدكم الدورة الكاملة لبحار الأنوار أو كانت عندهُ فإنَّ عنده جميع المعارف الإسلامية. والمقصود من ذلك كلّه هو خدماته العظيمة للإسلام.

رآهُ شخصٌ في المنام، وقال له: كيف حالك يا سيدي؟

قال: نفعني شيءٌ واحد. كنتُ أذهب إلى المسجد مرّة، وحصل بَرَدٌ شديد، ورأيت في تلك الحال قطّة صغيرة، حملتها ووضعتها تحت جبتي. كنتُ قد وضعتُ الجبّة على رأسي فما كان البرَدُ يصيبني ولا يصيبها. وعندما انتهىٰ البَرَد والمطر تركتها لحالها، فقد نفعني هذا الفعل كثيراً.

ويُنقل عنه أنّه قال: نفعني فعل واحد وهو أنني رأيت يوماً في شارع جوبارة طفلاً يهودياً (في مدينة أصفهان زقاق اسمه جوباره يكثر فيها اليهود وهي كثيرة الأوساخ، يقربُ هذا الزقاق من مسجد الجمعة الذي كان يصلي فيه المجلسي الأول والثاني). وكانت في يدي تفّاحة. عندما وصل الطفل إلى قربي ورأى التفاحة فرح كثيراً. فأعطيتهُ التفاحة وكان لفعلي هذا عواقب حسنة.

تجسم الأعمال في الآخرة:

يُنقل في ذكر أخلاقِ عارفٍ أنّه قال: حصل لي عدم توفيق عجيب ورأيتُ في المنام أنّه قيل لي: شكتك عصفورةٌ في الحَضْرَة. عندما استيقظتُ من النوم تذكرتُ أنني اصطدتُ عصفوراً صغيراً، لعبت به قليلاً ثم تركتهُ، يقول تألمتُ كثيراً لهذا الأمر حتى جعلني أرحلُ إلى الصحراء، فرأيتُ هناك حيّةً في فمها عصفور صغير. رفعتُ عصاي، فتركت الحيّةُ العصفورَ الصغير. فرأيت في المنام ليلاً أنّه قيل لي: شَكَرَتْك عصفورة في الحضرة. فحصل لي توفيق ونشاط للعبادة.

ويوجد عكس هذا الأمر فقد شاهدوا في المنام أحد العلماء العظام وهو يقول: إنّ عقرباً تلدغ إبهام رجلي كلَّ صباح وتبقى آلامها حتى صباح اليوم الثاني وهكذا تأتي العقرب في اليوم الثاني أيضاً ثم قال إنني أوجدتُ هذه العقرب بكلامي القبيح على مسلمٍ وتجريح قلبه.

يذكر القرآن هكذا مسائل ويقول:

﴿يومَ تجدُ كُلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ مُحْضراً﴾[1].

فالغيبة، وفضح المسلم، والغضب والشدّة في البيت والشارع وتجريح الآخرين بالكلام بالأخص الأفراد العاملين لنا والذين لا ملجأ لهم إلاّ الله تعالى، كلّ هذه تصيرُ عقرباً لاذعاً.

جاء في رواية عن الإمام موسىٰ بن جعفر (ع) عن الإمام الباقر (ع) عن السجّاد (ع) وعن الحسين (ع) أنّه قال: قال أبي أمير المؤمنين (ع): إيّاكَ وظلمِ مَنْ لا يجدُ ناصراً إلاّ الله.

أي لا تظلم أبداً، بالأخص من لا ناصر ولا ملجأ له إلاّ الله، كالمرأة في البيت، والصانع أو التلميذ في محلّ العمل، المرأة أو الرجل القروي أو المشتري البسيط. اعلموا أنَّ الجدل والنزاع والغلظة من عدم العاطفة، والرحمة من العاطفة والوجدان. فكلما كان الوجدان كبيراً كان الإيثار والعفو، والصفح كثيراً حتى يصل إلى مقام رفيع.

ينقل الغزالي في إحياء العلوم أنّ شخصاً جاء إلى مدينة حمص بوصفه حاكم ومحافظاً للمدينة. بعد فترة اشتكوا منهُ، فعندها جاء هذا الرجل حافي القدمين إلى المدينة وبصرّتهِ التي كان يحملها دخل المسجد. قيل أول شكوىٰ عليك هي أنك تتأخّر في الخروج من البيت نهاراً.

قال: صحيح.

---

(١) سورة آل عمران/ الآية ٣٠.

الشكوىٰ الثانية هي أنك لا تُرىٰ ولا تتواجد ليلاً.

قال: وهذا صحيح أيضاً.

الشكوى الثالثة هي أنك تختفي في الأسبوع مرّةً. قال: وهذا صحيح أيضاً. إمّا انني أتأخّر في الخروج من البيت لأنني قَسَّمْتُ العمل في البيت بيني وبين زوجتي، ووقع عليَّ طبخ الخبز لذلك أتأخَّر في طبخهِ.

قالوا: حسناً إنّ جوابك هذا مُقْنِعٌ وكافٍ.

أذكر هنا أمراً وهو أيها السيّد تعلّم قليلاً. ولا يبعثُكم هذا على أن تقولوا لقد حقّرتَ الرجال! وإنْ لم تتعلّم فلا تغضب وتتكلم بكلام قبيح في البيت. فهذه المعاملات تزيد من ضغط القبر، وضغط القبر يسحق الإنسان، وإن الغضب وسوء الْأخلاق تجعل الإنسان كلباً.

أحد العظام رأى في المنام أحد الرجال الكبار بهيئة الكلب. قال: لقد كنتَ رجلاً مقدّساً ومؤمناً، لماذا أصبحتَ كلباً؟!

قال: آه، من سوء الأخلاق في البيت! آه من سوء الأخلاق في البيت! وهكذا كرر ذلك ثلاثاً!

لذا كان النبي الأكرم (ص). يحلبُ الحليب من الحيوانات، ويرقع الثوب، ويعجن الطحين، ويخبز الخبز، وإنْ لم تفعلوا هذه الأمور فكونوا ليّنين في البيت والعمل وفي الشارع وحَسِني الأخلاق.

وأمّا عدم تواجدي في الليل هو لأنني قَسّمتُ وقتي بين الله وبين الناس. فخصَّصْتُ الليل لله والنهار للناس. لذا أستعدُّ في النهار لخدمة الناس وأرغب في الليل في الصلاة والدعاء والتضرع والمناجاة.

وأما غيابي في الأسبوع مرّة فهو لأنني أغتسلُ في الأسبوع مرّةً وليس لي سوى ثوب واحد. فعندما أدخل الحمّام تغسلُ زوجتي ثوبي وتتركه لييْبَس، وبما أن الجوّ باردٌ فيتأخّر يَبْسُ الثوب لهذا لا يمكنني الخروج من البيت يوم الجمعة ولا يراني الناس. إضافة إلى ذلك فإنّ يوم الجمعة هو يوم عبادة.

أحبَّهُ الناس كثيراً، وأهدوهُ مقداراً من المال ليستخدم خادماً يخبز له، الخبز ويشتري ثوباً آخر. أخذ المال وعاد إلى المدينة ماشياً على قدميهِ. قبل عودته إلى البيت قال للمنادي أن ينادي في المدينة بأنه وجد مقداراً من المال وليأتِ كلّ محتاج لأعطيه. أعطىٰ قسماً من المال للمحتاجين وبقي منه شيء، ثم عاد إلى البيت وشرح ما حدثَ لزوجتهِ. سألتهُ زوجته عن النقود وعندما علمت أنّ بعض النقود بقيت لديه قالت له ليذهب ويشتري لنفسه ثوباً ويستخدم خادماً لأعمال البيت.

قال كلا. هناك أمر أهمُّ، وحفظ النقود. لم يمضِ أسبوع حتى طرق بابه رجل فقير فأعطاهُ كلَّ النقود الباقية، وعندما ذهب الرجل الفقير، قال لزوجته إننا نخبز الخبز بأيدينا ونقنع بثوب واحد ليعطينا الله ثوب الآخرة.

هل يستطيع الوجدان الأخلاقي تنظيم الغرائز؟

تنبع هكذا أمور من العاطفة والوجدان الإنساني، وما ألطف وجود العاطفة! كما كان العقل والعلم ثمينيْن. لكن هل يمكن للوجدان الأخلاقي أن يكون قوّة مُنَظِّمَةً للإنسان؟ والجواب هو ما ذُكِرَ للعقل والعلم. في الأحوال العادية نعم يمكنه وهو قوّة جيّدة، لكن لو طغت إحدى الغرائز فلا أثر للوجدان الأخلاقي عند ذلك. هناك كثير من المجرمين آختلّتْ عقولهم بعد إجرامهم بسبب الضربات التي يوجهها لهم الوجدان الأخلاقي. لكنهم كانوا قد سحقوا الوجدان عند إقدامهم على الجريمة وعند طغيان غريزتهم. وهذا أفضل دليل على أن الوجدان الأخلاقي جيّد ومؤثّر لكن في الأحوال العادية لا في حال طغيان الغرائز. حطّم أنشتاين الذرَّةَ. وأوّل نتيجة لعمله هي القنبلة التي قتلتْ ٧٥ ألف إنسان بريء في اليابان! وذلك عندما منِحَ ضابط له من العمر ٢٥ عاماً في القوة الجويّة جائزة (وهي الارتقاء من درجة الضابط إلى الآمر والفريق) وقال له إرْمِ هذه القنبلة على اليابان وَعُدْ. وعند هيجان غريزة حبُ الشهرة والمال وتحسين البيت الأبيض الأمريكي له، طغت غرائزهُ وثارت. وعند ذلك سُحِقَ الوجدان الأخلاقي، فرمىٰ القنبلة على اليابان وعاد، ثم سمع بقتل ٧٥ ألف

إنسان بريء. فعند ذلك اهتزّتْ نفسه ولم تغمضْ عينهُ ليلاً. ومن هنا بدأتْ ضربات الوجدان الأخلاقي. فكان يكرر أنا الذي قتلتُ ٧٥ ألف بريءٍ. فلم يستطع النوم وضعفتْ أعصابهُ. وكلّما زادوا مِنْ ارتقاء درجاتهِ لم يتمكن من النوم وازداد ضعفه، حتى اختلَّ عقلهُ وأُخِذَ إلى دار المجانين، وقد فرَّ من هنالك عدّة مراتٍ. فلو عاند الإنسان عندما يؤنّبهُ الوجدان الأخلاقي فقد تحصل عواقب سيئة. فإنّه كان يقول أنا قاتل ومجرم لكنه عندما كان يفرّ كان يقتل ويسرق حتى سُجِنَ في غرفة مغلقة. فكان يكرر قوله أنا قاتل ومجرم حتى ماتَ، تأمّلوا في هذا الرجل فإنه قبل أن يرمي القنبلة لأنّ غرائزهُ كانت عاصفة لم يؤثر فيه الوجدان الأخلاقي، لكنه عندما ارتكب عملاً سيئاً وقبيحاً جاء هنا دور الوجدان الأخلاقي.

وهذا أفضل دليل على أنّه لا أثرَ للوجدان الأخلاقي في تقييد الغرائز وتنظيمها؛ لأنّ الغرائز لو عصفتْ وطَغَتْ فإنها تسحق الوجدان الأخلاقي.

دور القانون في تنظيم الغرائز

كانت البحوث السابقة حول القوىٰ الداخلية وأثرها في تنظيم وكبح الغرائز. قيل أنّ القوى الخارجية يمكنها تنظيم الإنسان وإحدىٰ تلك القوىٰ القانون. فلو كان في المجتمع قانون ومنفّذ جيّد أمكنَ بذلك تنظيم الغرائز الإنسانية. وهل يمكن للقانون تنظيم الإنسان والسيطرة عليه عندما تطغىٰ الغرائز أيضاً؟

الإنسان والقانون:

منذ أن بدأ الإنسان حياته الاجتماعية كان له قانون ليمكنه العيش في المجتمع. فالإنسان مدنيّ واجتماعي، ولو أراد البقاء في المجتمع فعليهِ أن يترك كثيراً من ميوله ورغباته وذلك يحتاج إلى القانون.

كان للإنسان قانون منذ أن كان يعيش بهيئة مجاميع وقبائل وحتى الآن. وبنظرة واحدة إلى تاريخ حياة الإنسان نرى أن جميع الناس يمتلكون القانون سواء المُتحضّر وغيره، وللإسلام قانون أيضاً. فلو نظرتم إلى الفقه الإسلامي لوجدتم القانون يشكّل أكثر من نصف الفقه الإسلامي. أي أن غير الكتب العبادية كباب الطهارة والصلاة والحج فسائر الأمور هي قوانين. فأكثر من نصف الفقه والذي نسميه بالمعاملات هو قوانين الإسلام التي أقرّها القرآن الكريم وقال:

﴿ولكمْ في القِصاصِ حياةٌ يا أولي الألباب﴾[1] والقصاص هنا من

(١) سورة البقرة/ الآية ١٧٩.

باب المثال. أي أن وجود الحياة الاجتماعية يكون في ظلٍّ وجود القانون.

يقول تعالىٰ في سورة الأنعام بعد ذكر القوانين:

﴿وأنَّ هذا صِراطي مُستقيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ﴾[1].

أي أنْ الصراط المستقيم للإنسان يتمثل في وجود القانون والعمل به، لذا لا يوجد إشكال في ضرورة القانون للإنسان. ولا إشكال في أنّ في القرآن قانون وأنّ كثيراً من روايات أهل البيت (ع) هي حصول وضع القانون. وقد أثبتت التجربة أنّ الإنسان محتاج للقانون. افترضوا انعدام قانون السياقة والسيارات في أحد الشوارع، فما هي العواقب السيئة والتصادم الذي يحدث جرّاء ذلك. ومن هنا نثبت أن الإنسان محتاج للقانون في حياته الاجتماعية. لكن الكلام في أنَّ هذا القانون بمقامهِ ومنزلته في القرآن وروايات أهل البيت (ع) هل يمكنه تنظيم الغرائز الإنسانية؟ في الأحوال العادية نعم، فما دامت الغرائز عادية وغير طاغية والنفس الأمارة غير عاصية فالقانون جيّد ومناسب لهذا الأمر. وخصوصاً لو كان القانون جيداً كقانون الإسلام والمنفّذ جيداً كالنبي والأئمة الأطهار (ع) أو الوليّ الفقيه. ولكن لو طغت الغرائز وجمعت هذه الخيول وجرى السَيْل، فهل يمكن لهذا السدّ الترابي (القانون) أن يمنع هذا السَيْل ويوقفهُ عند حدّهِ؟ كلاّ. ما يلزم ذكره هنا هو أن القانون جيّدٌ ولكن فيه نواقص كثيرة أيضاً.

نواقص القانون:

أول نقيصة في القانون هي أن القانون لا يتوافق مع مقام الإنسان الشامخ. يوضع القانون عادةً لدفع الاعتداء والتجاوز، وليس الإنسان معتدياً بطبيعة مقامه. ويوضع القانون لرفع الظلم، والإنسانُ لو كان إنساناً فهو ليس ظالماً، وبشكل عام لو كان الإنسان متكاملاً في إنسانيتهِ لما آحتاج إلى القانون. لذا يقول علماء الاجتماع إن كثرة وآزدياد القانون دليل على الانحطاط الأخلاقي عند الناس.

---

(١) سورة الأنعام/ الآية ١٥٣.

أي عندما يضع القرآن قانوناً ويقول: ﴿ولا تَقْتُلوا أولادَكُمْ مِنْ إمْلاقٍ﴾[1] فذلك دليل على ضلال الناس في زمن الجاهلية بحيث أنهم كانوا يدفنون بناتهم وهنّ على قيد الحياة. وعندما يقول القرآن: ﴿ولا تَقْرَبوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها ومَا بَطَنَ﴾[2] فمعنى ذلك أنه يضع قانوناً لفحشاء الظاهر والباطن وذلك دليل على آنحطاط الإنسانية، وإلاّ لو كان الإنسان متخلّقاً بأخلاق الله وخليفة الله لما احتاج إلى قانون. لذا يوجد في القرآن أمرٌ دقيق يبيّن احترام الله تعالى لشخصية الإنسان وهو قلّة وجود القانون في القرآن. ففي القرآن ما يقاربُ سبعة آلاف آية ولكن كما كتب الفقهاء العظام كالمقدسي الأردبيلي في آيات الأحكام، فإنهم لم يستطيعوا أنْ يجدوا أكثر من ستمائة آية في القرآن تتحدث حول القانون. وبالعكس توجد أكثر من أربعة آلاف آية تتحدث حول الناس وأخلاقهم بشكل مباشر وغير مباشر، وهذا احترام كبير للناس. يقول القرآن: أنا كتاب لك، لستُ كتاب قانون لأنكَ إنسانٌ، لو صرتَ إنساناً فلا تحتاج إلى القانون فلو احتاج مجتمع ما إلى القانون فاعلموا أنّ الإنسانية آنحطّتْ فيه.

يُنقَلُ أنّ الاسكندر ذا القرنين دخل مدينةً ورأىٰ أموراً لم يشاهدها من قبل. رأى بيوتهم ومحل أعمالهم ليست فيها أبواب، وهم يتركون مخازنهم ودكاكينهم ويذهبون إلى بيوتهم ليلاً. تعجّب وقال: ألا يوجد لصوص هنا؟ ولماذا لا توجد أبواب للدكاكين؟ تجوّل في هذه المدينة عدة أيام بشكل مخفيّ ولم يرَ إلاّ الرحمة والعطف والتعاون بين الناس. فالكلُّ أخوة متعاونون وبالتالي وجدهم جميعاً أجزاء عضو واحدٍ لو اشتكى أحد الأجزاء تألّمت جميع الأجزاء وكما يقول الإمام الصادق (ع): المسلم إذا علمَ بحاجة أخيه المسلم أو بليته، لم ينمْ ليلةُ. أو كما ينصّ القرآن:

﴿مـحـمَّدٌ رسولُ اللّٰهِ والـذيـنَ مَعَهُ أشِدّاءُ علـىٰ الكُفّـارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾[3].

---

(١)و(٢) سورة الأنعام/ الآية ١٥١.

(٣) سورة الفتح/ الآية ٢٩.

فوجدهم ﴿رُحماء بينهم﴾ والأمر الآخر الذي زاد من تعجّبهِ هو أنه لم يجد لهم مقبرة، وأنّ قبورهم تتواجد أمام بيوتهم، والأكثر عجباً هو أنه رأىٰ الموتىٰ كلّهم شباباً، فتّشَ بين القبور فلم يجد ميّتاً له من العمر أكثر من ٣٠ عاماً. فكلّ الموتى كانوا بين ١٥ ـ ٣٠ عاماً. فتعجّب لموتى في ريعان الشباب! فوجد أحد الشيوخ الكبار والعقلاء والمجرّبين وتحدّث معهُ، وقال لهُ لم أجد مدينة كمدينتكم طوال جولاتي كلها. لماذا لا توجد أبواب ولا بوّابون؟!

قال الرجل العجوز: الباب والبوّاب هي للسارق، ولا يوجد سارقٌ هنا. فجميع الناس هنا يحفظون أموال الآخرين ويفكّرون بهم.

قال: أرىٰ بينكم رحمة وعطفاً عجيباً، فما سرُّ ذلك؟

قال: لا تعجب لأن الإنسان معناهُ العطف والرحمة واللين، وعليك أن تعجب إن لم يوجد العطف والعاطفة فلو أراد الإنسان أن يظلم فعليه أن يسحق الوجدان الأخلاقي والعقل أولاً ثم يظلم. فمعنى الإنسان هو تجسيم العاطفة. كان علماء النفس يقولون لو جسّمنا العاطفة لحصلنا على الكلب، كلاّ، إنهم مخطِئون. لو جسَّمْنا العاطفة لحصلنا على الإنسان. فالإنسان كلّهُ عطف وتعاون ورحمة. لو لم يفكّر بالآخرين فهو ليس بإنسان.

وأضاف الرجل العجوز: وأما سبب وجود المقابر أمام البيوت فهو لتتذكر آباءنا وأمهاتنا عندما تخرج من البيت صباحاً، وننتبه إلى أنفسنا. فإنهم ماتوا ونحن سنموت، فيجب تنظيم أنفسنا. أمّا أنك ترىٰ قد كتبنا على القبور، ٣٠ و٢٥ و٢٠ عاماً، فذلك لعدم وجود الكذب والتخلّف والتظاهر في حياتنا، فلو كتبنا على القبر أنّ عُمْر فلانٍ كان ٧٠ عاماً، فقد كْذبنا لأنّ الإنسان الذي نام ٣٥ عاماً لم تكن من الحياة الإنسانية ونحن نريد أن نعطي لعمر الإنسان وعيشهِ اسم الحياة. فيجب أن يكون الإنسان هكذا.

يقول الإمام الصادق (ع) في تفسير ﴿**إنّ اللّه يُحيي الأرضَ بعدَ مَوْتِها**﴾[1]. عندما يأتي ولدي المهدي فإنه يحيي الأَرضَ الميتة والناس الأموات.

---

(١) سورة الحديد/ الآية ١٧.

﴿هوَ الذّي أرْسَلَ رسولَهُ بـالهُدىٰ ودِينِ الـحَقِّ لـيُظْهِرَهُ علىٰ الدِّينِ كله وَلو كرِهَ الـمُشرِكُونَ﴾[1].

يـملأُ الله الأرضَ قسطاً وعدلاً بعدما مُلِئَتْ ظلـماً وجوراً. وعند ذلك ترفرف راية الإسلام خفّاقة على الكرة الأرضية وتُـمْلأُ الأرضُ عدالةً. برأي الإسلام والقرآن إنّ الإنسان يصلُ إلى هذه الأمنية ومقام الإنسان هذا لا يتفقُ مع القانون. ولا يناسبُ لباسَ القانون جسمُ الإنسانِ. لماذا يريد الإنسانُ القانونَ؟ فلو تشاهدون القانون في القرآن والروايات، وأنه موجود منذ زمن آدم، وحتى الآن بل، وحتى عند ظهور الإمام المهدي (عج)، فاعلموا أنّ بعض الناس غير صالحين. وهذا أوّل إشكال على القانون، وهو لو كان الإنسانُ صالحاً لما احتاج إلى قانون. نزل القرآنُ لتربيةِ الإنسان وهدايته وإصلاحهِ وعندما يتحقق هدفه عملياً فلا حاجة إلى القانون. فيمكن تسمية القرآن بأنه مصنعٌ لصُنع الإنسان.

دور القانون في الخلوة والوحدة:

والنقص الثاني في القانون هو عدم إعماله في الخلوة وأنّه نافع في الحضور وفي العَلَن وأنَّ أغلب الجرائم تحدث في الخفاء والخلوة. فالإنسان يريد شرطيّاً مخفياً يكون معه دائماً. فما هو شرطي الإنسان والمراقب له؟ هو الذي أنزل عليه القرآن.

يقول القرآن: ﴿ألَـمْ يعلـمْ بِأنَّ اللَّهَ يَرىٰ﴾[2].

لقد عرف أستاذنا العظيم العلامة الطباطبائي ذلك، وكان ذلك الشُرطيُّ معه دائماً وكلّما أريدَ منه نصيحة ذكر هذه الآية.

كنّا عندهُ مرةً. وكان عنده أحد العلماء الكبار، وأراد أن يرحل. كان له منصبٌ كبير في مدينته. قال: سيدي إنصحني نصحية تبقىٰ في سمعي دائماً. لذا قال بكل بساطة وتواضع:

---

(٢) سورة التوبة/ الآية ٣٣.

(١) سورة العلق/الآية ١٤.

﴿أَلَمْ يعلمْ بأنّ اللّهَ يَرىٰ﴾.

أو طُلِبَ منه ذلك مرّة أخرىٰ، فقال: ﴿قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرىٰ اللّهُ عَمَلكُمْ ورَسُولُهُ والمُؤمِنُون﴾[1].

لهذه الآية الشريفة معنى ظاهر ولا تأويل لها. فهم يرون العمل وكيفية القيام به ايضاً. أي عندما أتكلّم الآن فهل ذلك بإخلاص أم لا؟ فالإمام المهدي (عج) يشهد علينا يوم القيامة، فإن لم يكن له سلطة على قلبي ولم يعلم بما فيه كيف يمكنه أن يشهد بإخلاصي أو عدمه؟

﴿وكذلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمّةً وَسَطاً لِتكُونوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ ويكونَ الرّسُول عليْكُمْ شَهيداً﴾[2].

لم أنسَ درسه الأخير الذي لم نَرَهُ بعده. وضعوا له تنفساً اصطناعياً ولم يمكن التحدث معه، ورحل إلى العلي القدير في اليوم الثاني. كان في درسه الأخير جمعٌ من العلماء والفضلاء والمدرّسين المحترمين. تكلّمنا ساعةً وهو ساكتٌ لم يتحدث بل كان يستمع فقط. بعد مضي ساعة شعرتُ أنّهُ مُتعبٌ وأوشك الدرس على الانتهاء لذا طلبتُ منه نصيحةً. فقال:

﴿فاذكروني أذكركُمْ وأشكروا لي ولا تكفرون﴾[3].

لكلّ هذه الآيات والأمور معنى واحد: ﴿أَلَمْ يعلمْ بأنْ الله يَرىٰ﴾. معنى ذلك هو أيها البشر اذكرني فأنا: أقربُ إليك ﴿منْ حَبْلِ الوريدِ﴾[4] ﴿وأنَّ اللّهَ يحولُ بينَ المَرْءِ وقَلْبِهِ﴾[5] أي قبل أن تفكر يعلم الله ما يدور في ذهنك، وقبل أن تعمل يعلمُ الله بما ستفعل، وحقيقة لو كانت هذه الجملة القرآنية أي نصيحة الأستاذ العظيم الطباطبائي في ذهننا وفي آذاننا وقلوبنا فما حاجتنا إلى القانون بَعدُ؟!

---

(١) سورة التوبة/ الآية ١٠٥.
(٢) سورة البقرة/ الآية ١٤٣.
(٣) سورة البقرة/ الآية ١٥٢.
(٤) سورة ق/ الآية ١٦.
(٥) سورة الأنفال/ الآية ٢٤.

وهكذا كان أستاذنا العظيم قائد الثورة روح الله الخميني وعندما كان ينصحنا في دروس الأخلاق أو في الخطابات العامة كان يذكر ذلك ويقول: اعلموا أنّكم في محضر الله وفي مرآه، فإنْ لم ترَ اللّهَ فاعلمْ بأنّه يراكَ.

وهذا ما يقوله الإمام الصادق (ع) حول الصلاة: عندما تقف للصلاة فإنك ترى الله تعالى وإنْ لم تَرَهُ فآعلمْ بأنّهُ يراك.

فأيّها الإنسان وأيّها التاجر والعامل والطالب، إعلم بأن الله يراك دائماً، ويرقب أعمالك. لذا فالنقص الثاني في القانون هو أنّه جيّد في الظاهر وفي العَلَن. ومثال على ذلك في البيت يجب توفر العطف والحنان والرأفة بين الزوج وزوجته، لكلٍّ حقوق تجب مراعاتها. فلو راعىٰ رجلٌ جميع حقوق الآخرين، لكنه عندما يدخل البيت يصيح ويسبُّ فيُسوِّدُ البيت على أهلِه، فماذا يفعل القانون له؟! ولكن أيها الرجل اعلم بأنّ أوّل مصيبة تصيبك هي ضغط القبر وبإمكان هذهِ تقييد الرجل في البيت والتزامه بالحقوق. أو قد تكون المرأة بدون عفة. فتظهر نفسها ذات عفة وإيمان أمام زوجها ولكنّها تقوم بأفعال مخالفة للعفة في الخلوة والخفاء. فأيّ قانون وأيّ عقل ووجدان يمكنه إلزامها وتقييدها؟ فالعامل الوحيد الذي يلزمها مراعاة الحقوق ويقيّدها بها هو **﴿أَلَمْ يعلمْ بأنَّ اللَّهَ يَرىٰ﴾**.

يُنقلَ انهّ حدثَ غلاءٌ شديد. وكانت امرأة علويّة ذات فقر مدقع وكان في جوارهم رجل حدّاد غنيٌ نسبة ما. جاءته المرأة وطلبت منه قليلاً من الحنطة. كان ذلك الرجل منحرفاً. لذا راودها وطلب مباشرتها، فلم تجبهُ المرأة وذهبت. صبرتْ ثلاثة أيام، لم تتحمّل مشاهدة جوع أطفالها فعادت إليه ثانية وسمعت منه الجواب السابق، فآهتزت وآرتجفت. لكنها كانت مجبرة في المرة الثالثة، فقالت أنا مستعدّة لطلبك، ولكن بشرطٍ وهو أن تأخذني إلى مكان ليس فيه إلاّ أنت وأنا. قال من الطبيعي أن آخذك إلى مكان ليس فيه أحد. أخذها إلى غرفة في البيت لوحدها فرآها ترتجف. قال لِمَ ترتجفين؟

قالت: لأنك لم تفِ بعهدك.

قال: ليس هنا أحدٌ.

قالت المرأة: أيُها التعيس إنّ الله هنا. وهنا ملكٌ رقيبٌ عتيد.

﴿ما يَلْفظُ مِنْ قَولٍ إلاّ لَدَيهِ رَقيبٌ عَتيدٌ﴾[1].

خاف الرجل. فالكلام الذي يخرج من القلب ينفذ في القلب. قالت المرأة: أدعو الله أن يُطفيء عنك نار الدنيا والآخرة كما أطفأت نار شهوتك عنّي، يُنقَلُ أنّ نارَ الدُنيا لم تؤثر على هذا الرجل بعد ذلك. فكان يُدخل يده في فرن النار ويُخرِجُ الحديد المُحترق والمُذاب. فالقانون للإنسان هو ما قالته هذه المرأة للرجل.

أرجو منكم أيها الأعزاء أنْ تقرأوا هذه الآية عند خروجكم من المنزل. الآية التي ذكر العلاّمة الطباطبائي (رض):

﴿فاذكروني أذكرْكُمْ وآشكروا لي ولا تكفرونَ﴾، ﴿ألَمْ يعلَمْ بِأَنَّ اللّهَ يَرىٰ﴾.

ليس القانون للجميع:

ثالث نقص في القانون هو أنه ليس للجميع. فلو كان الجهاز الحاكم منحرفاً فماذا يفعل القانون؟ فالقانون يوضعُ للرعيّة عادةً. فلو كان الجهاز الحاكم منحرفاً وغير مقبول، ما بيدِ القانون من حيلة؟

ينقل عن معاوية أنّه كان قد أرسل عبد الملك بن مروان حاكماً إلى الكوفة. وكان في الكوفة رجلٌ خسِرَ في تجارته وأفلس وكانت له زوجة وفيّة. طلب والداها منها أن تطلب الطلاق من زوجها فقالت هذه الزوجة الشابة: إنني كنتُ معه عندما كان غنياً، فلماذا لا يكون زوجي عندما أفلسَ؟

أرجو منكم أيها الآباء أن تتركوا أولادكم يعيشون معاً في هكذا أوضاع. ولا تتدخلوا في أمورهم. فعندما يراجعني الناس أرىٰ أن ٥٠٪ من الاختلافات

---

(١) سورة ق/ الآية ١٨.

هي بسبب الوالدَيْن. فعندما تَرونَ روابطهما الوثيقة لماذا لا تفرحون لذلك؟ ولماذا يكون الوالدان سبب كثير من الاختلافات بين الزوجين؟

سبب والدا زوجين شابين اختلافاً بينهما. فذهب الوالد إلى الإمام الحسين. فغضب الإمام (ع) وقال له: سمعتُ بأنكَ وزوجتكَ سببتَ ذلك! فعقوبة عملكم شديدة وكأنّكمْ مثلتُمْ بالزّوجين. حديثُ التفرقة بين الزوجين بمنزلة قتل النفس.

واستمرَّ النزاع حتى وصل إلى الحاكم. وعندما جاء الوالدان والزوجين إلى مروان. نظر مروان إلى الزوجة فعشقها. فعندما تثور الغريزة الجنسية عند الرجل فإنه يلاحق نساء الآخرين وإن كانت له زوجة. فقد كانت له نساء كثيرات ولعلّهُ لم يصلها في الشهر مرّة لكنه لم يكتفِ بذلك فقال للزوجة: إنّ هذا الزوج لن ينفعكِ فاطلبي الطلاق منه.

قالت: كلا.

قال للرجل: طلّقها. قال: لا. وبعد ذلك طلَّقَها صبراً. وسجن الزوج وتزوّجَ زوجتهُ. خرج الرجل من السجن، وذهب إلى معاوية حافي الأقدام وشرح له ما حدث. فكتب معاوية لمروان أن يحضر مع المرأة ووالديهما إلى الشام. فجاء الجميع، وعندما دخلوا مجلس معاوية، كأنّ البنت كانت جميلة جداً، فزلَّتْ قدم معاوية وقال طَلِّقْها.

قالت المرأة: كلاّ.

فنظر إليها معاوية وقال أيتها المرأة! (وأراد تحريك عواطفها) تريدين الخليفة مع قصرهِ أو تريدينِ حاكمه مع قدرته أو تريدين زوجك مع فقره؟ إختاري بنفسكِ. فعند ذلك قال الزوج أمام معاوية، إلهي شكوتُ الحاكم عند الخليفة، فلمن أشكو الخليفة؟

فنظرت المرأة الوفيّة إلى معاوية وقرأت عدة أبيات من الشعر معناها: لا أعوّض شعرة واحدة من زوجي مقابل الخليفة وجهازه والحاكم وقدرته وحتى

أمّي وأبي، فلا أعطيك شعرة واحدة من زوجي مقابل قصرك وقدرتك، وبالتالي استطاعت الرجوع إلى زوجها ببلاغة لسانها.

والمقصود هو لو استطاع القانون إلزام الناس، فما يفعل لو كانت السلطة الحاكمة منحرفة؟

القانون والغضب:

والإشكال الرابع هو أن القانون غير مؤثر وغير معالج لهذا الإنسان. فلو طغت الغريزة وعاندَ الإنسان فعند ذلك يكون مستعدّاً لينتحر حتى يغيّر الآخر. لذا يقول القرآن الكريم عن هذا الإنسان.

﴿وإذْ قالُوا اللَّهُمَّ إنْ كانَ هذا هوَ الحقَّ مِنْ عندِكَ فأمْطِرْ علينا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أوِ ائتِنا بعذابٍ أليمٍ﴾[1].

يقول المفسّرون نزلت هذه الآية عندما نصَّبَ الرسول (ص) أميرَ المؤمنين (ع) بالخلافة، فجاء أعرابي وقال: إنّ ما فعلته كانَ منْ عندكَ أم بإجازةٍ؟ فعلهُ اللَّهُ أمْ أنتَ؟ فإنْ فعلتهُ أنت فلن أقبلهُ وإنْ قالَهُ اللَّهُ لا يمكنني مشاهدتهُ، فأطلب من الله أن يرميني بحجارة. فهكذا هو الإنسان! لو غضب يصيرُ مجنوناً.

إياكَ والغضب فإنّ أولهُ جنونٌ وآخرهُ ندم.

فعندما يغضب الإنسان لا يعرف الصغير ولا الكبير ولا الخادم ولا الزوجة ولا الأطفال. ولا يبقىٰ له صديق، وإن أصبح الإنسانُ بلا حياء فلا يعرف الشرف والعفة بَعْد. فما الذي يطفىء غضب الإنسان؟ وهل يمكن لصفة العقل أن تجعل من الإنسان كمالك الأشتر؟

يُنقل عن مالك الأشتر أمران. يُقال أنّه دخل الكوفة وكان معه ٦٠٠٠ جندي. تركهم خارج المدينة ودخل الكوفة أو البصرة. رأىٰ طفلة باكية، وهل يمكن للإنسان أن يرىٰ طفلة صغيرة تبكي ويتركها؟ لم يتحملْ. فعطف عليها وسألها ماذا حدث؟

---

(١) سورة الأنفال/ الآية ٣٢.

قالت: أخذ الرجل نقودي ولم يعطني إيّاها. جاء إلى الرجل الكافر وسلّمَ عليه وقال: يظهر أنّ الطفلة صادقة، وإنْ لم تصدقْ فعليك أن تعطف عليها. فأعطِها نقودها لتذهب.

كان الرجل مشغولاً بعملهِ. كان جسوراً ومعربداً فصاح على مالك الأشتر. فكرر مالك جملتهُ. لم يلتفت إليه الرجل. فذكر له عبارة عن أمير المؤمنين (ع)، فلم يبالِ وخرج من محلّه وضرب مالكاً في صدرهِ وقال: دعني أمارس عملي. وفجأة عرفَ مالكَ الأشتر وبدأ بالتضرّع.

قال مالك الأشتر: ارضِ هذه الطفلة الصغيرة، فأنا راضٍ عنكَ. فالذي أغضبني هو حزن هذه الطفلة وانكسار قلبها.

ويُنقل عنه أيضاً أنه كان يمرّ عبرَ شارعٍ، وكان رجلٌ جالساً في دكانه، فأراد أن يقوم بحركة تسبب ضحك أصدقائِهِ. كان قد أعدَّ طيناً من قبل، فرماهُ على عباءة مالك الأشتر. فلم ينظر إليه مالك وذهب إلى المسجد. وبعد ذلك عرف الرجل مالك الأشتر وأنه قد رماهُ بالطّين. فأغلق دكانَهُ وتَبِعَهُ ليعتذر منه، رآهُ يصلّي. وعندما تمّتْ صلاتهُ جاء الرجل ليعتذر، قال أنا الذي تجرأت عليكَ، ورميتكَ بالطيّن. قال أنا لستُ غاضباً. عندما رميتني بالطّين هنتَ مسلماً وإهانة المسلم هي محاربة للّهِ. وقد جاء في الروايات:

مَنْ أهانَ وليّاً فقد بارزني بالمحاربة.

يقول الإمام الصادق (ع): المراد من الوليّ هو الشيعي.

فقال مالك: رأيت ذنبك كبيراً لذا جئتُ إلى المسجد لأصلي وأدعو لك ولنفسي بعد الصلاة، وأقول اللهمّ أعفُ عنّا.

﴿ولْيعفُوا ولْيَصْفَحوا ألاَ تُحبّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لكُمْ﴾[1].

فلو أردتَ أن يعفو اللّهُ عنك يوم القيامة فآعفُ في هذه الدنيا، ونستفيد

---

(١) سورة النور/ الآية ٢٢.

من هذه الآية الشريفة أنّ الذي لا يعفو ولا يصبر في هذه الدنيا، لن يعفو الله عنه يوم القيامة، وتعساً لمنْ لا يعفو الله عنهُ وهل يمكن للإنسان دخول الجنة بدون عفو اللّهِ؟! حتى الأنبياء (ع) يدخلون الجنة بشفاعة أهل البيت (ع) وعفو اللّهِ، مع أنّهم يشفعون. وهل يمكن لأعمالِنا أنْ تُدخِلَنا الجنة؟ ما أجمل ما قال ذلك العظيم؛ تعالوا نتوب من عبادتنا! علينا أن نتوب من عباداتنا أيضاً. لا يدخل الجنة إنسانٌ بهذه العبادة فقط. ودخول الجنة يلزمهُ العفو وذلك هو العفو الإلهي.

لا تُحقروا الذنب والثواب:

جاء في الكافي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: لا تحقروا الذنب فلعلَّ ذنباً، صغيراً يوجب غضب اللّهِ فيناديهِ حرمتكَ من رحمتي. ثم قال: لا تحقر الثواب. فلعلكم تفرّحون قلباً وتعتبرونه عملاً صغيراً، لكنّهُ يوجب رحمة الله فينادي انني قد رحمتك وعفوت عنكَ.

لقد عَمَّرَ السيد المرحوم الرضي رحمهُ الله كثيراً. وكما يقول المرحوم آية الله العظمىٰ البروجردي رحمهُ الله إضافة إلى كونهِ عالماً، كان عابداً وأوجد انقلاباً وتحوّلاً في الإسلام. وله من الباقيات الصالحات مسجدٌ يسمّى مسجد السيّد، فهو مسجد ومدرسة ومكان مبارك ومقدّس. كان قد قال أن هذا التوفيق الذي منحنيهِ الله مرهون لكلبٍ.

كانت حالتي سيئة عدّة أيام، اقترضتُ نقوداً واشتريتُ بها طعاماً. وعندما رجعتُ رأيتُ جراءاً يمتصّون ثدي كلبٍ وليس للكلب حليب. فتألّمتُ كثيراً، فأعطيتُ الطعام لهذا الكلب. ثم غسلتُ الإناء وأعطيتهُ لصاحبهِ. في ذلك اليوم تغيّرت حالتي، ووجدتُ في نفسي شعوراً وفهماً وإدراكاً آخر. وبعد ستة أشهر قيل لي أنْ فلاناً ماتَ وأوصى لك بثلث مالهِ. وكان ثلث مالهِ كثيراً، رأيتُ أنني استغنيتُ بسبب مساعدة ذلك الكلب. كان مرجعاً وكانت له قدرة وعلم واسع. ومع كل مشاغله كتب دورة كاملة في فقه الجواهر. وقد ارتفع مقامه ومنزلته كثيراً بين الناس حتى أنّ فقيراً طرق باب ابن ناصر الدين شاه (ظلّ السلطان).

فغضب عليه وقال له لماذا جئتَ هنا؟ لو كنتَ تريد المال فاذهب إلى مسجد السيّد، وإن كنتَ تريد العلم فاذهب هناك، ولو أرَدْتَ القدرة فاذهب إلى مسجد السيد. وإنّ هذا السيد كان قد قال إن هذا العلم والقدرة والثراء من سبب مساعدة الكلب والرأفة والعطف عليه. ولهذا يقول الصادق (ع) لا تحتقروا صغائر الذنوب ولا صغائر الثواب..

خلاصة الكلام:

وخلاصة الكلام هي أن القانون لا يمكنه إلزام الإنسان والإشكالات على القانون أكثر من الإشكال على العقل والوجدان فلا يريد الإنسانُ القانونَ بل يجب أن يكون إنساناً وعند ذلك تستقيم الأمور. والذي يمكنه أن يجعل من الإنسانِ إنساناً يكمنُ في هذه المقولة: **﴿أَلَمْ يعلمْ بأنّ اللَّهَ يرىٰ﴾**.

الرقابة الاجتماعية

أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام:

من الأمور التي ذكرتْ لإلزام الإنسان الرقابة الاجتماعية والمراد من الرقابة الاجتماعية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام، وقيل إنها لو تحققت في المجتمع فتكون قوّة ملزمة للإنسان. نعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد الواجبات في الإسلام وقد اهتم به القرآن والسنة كثيراً حيث يقول القرآن:

﴿كُنتُمْ خيرَ أمّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ تأمُرُونَ بالمَعروفِ وَتَنهونَ عَنِ المُنكَرِ﴾[1].

﴿المؤمنونَ والمؤمِناتُ بَعْضُهُمْ أوْلياءُ بَعْضٍ يأمُرُونَ بالمعروفِ ويَنْهونَ عن المنكرِ﴾[2].

ويقول أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة:

إذا تُرِكَ الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكر سَلط اللّهُ عليهِمْ شِرارَهُمْ ويدعونَ خِيَارهُمْ فلا يُسْتَجابُ لَهُمْ.

ونقرأ في الروايات أن أحد الأمور التي تحجب عن استجابة الدعاء هو

(١) سورة آل عمران/ الآية ١١٠.

(٢) سورة التوبة/ الآية ٧١.

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم يقول القرآن:

﴿والعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لَفي خُسْرٍ، إلاَّ الّذينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصالِحَاتِ وتواصَوْا بالحقّ وتَواصَوْا بالصَّبْرِ﴾[1].

إنّ هذه السورة المباركة سورة عجيبة، وكانت مهمّة عند المسلمين حتى أنهم عندما كانوا يلتقون وبعد السلام يقول أحدهم: بسم الله الرحمن الرحيم والعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ. ويقول الآخر: إلاّ الّذِينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ. تقول هذه السورة المباركة: إنّ الإنسان يحتاج للوصول إلى السعادةِ إلى أساس يسمّىٰ الإيمان، وجناحين للطيران والتحليق هما: العمل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وما دام لم يكن كذلك فهو كالطير الذي لا جناح له تصطاده القطّة وتأكلهُ. وحتى لو كان له جناح واحد فهو مكسور الجناح لا يمكنه الوصول إلى السعادة. فأصل الموضوع هو أمرٌ مسلَّمٌ به وقد أكّدَ عليه الكتاب والسنّة كثيراً.

مراتب ومراحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب، وأهمُّ مراتبهِ هو الجانب الإيجابي لهذا الأمر، وهو لو رأىٰ الإنسانُ شخصاً مقصّراً في الواجب ينصحهُ ويرغّبه، وإنّ رأى ذنباً من أحدٍ يمنعهُ عنه بلسانهِ وبلينٍ.

﴿إذهَبَا إلىٰ فِرعَوْنَ إنّهُ طَغىٰ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذكَّرُ أو يَخْشَىٰ﴾[2].

تقول هذه الآية يكون التقدّم في العمل عندما يكون الإنسان مسلّطاً على أعصابه ويقول كلاماً ليّناً. لعلَّهُ يتذكَّرُ أو يخشىٰ، إنّ الله يحبُّ أنْ يهتدي فرعونُ فيأمرُ موسىٰ (ع) بأنّ هدايتَهُ في أن تكلّمه كلاماً لطيفاً: **﴿فقُولا لَهُ قولاً ليّناً﴾** وأرجو من الوالدين أن يأمرا بالمعروف وينهيا عن المنكر في البيت ولكن

---

(١) سورة العصر.

(٢) سورة طٰه الآية ٤٣ و٤٤.

بتسلّطهم على أعصابهم. وبكلام ليّن بالأخص مع الشباب فيكلّمونهم ويذكرون لهم الأدلة. فالجدل والعصبية تنتج العكس عادةً. وأنّ القرآن يعلّمنا ويقول:

﴿وإذ قالَ لُقمانُ لابنهِ وهُوَ يَعِظُهُ: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللّهِ إنَّ الشرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

في هذه الآية استدلال ولين وعطف وأسلوب الكلام أسلوبُ حكمةٍ وموعظة.

والمرتبة الثانية هي المبارزة السلبية، عندما لا تنفع المبارزة الإيجابية.

المحاربة السلبية:

المحاربة السلبية هي عندما تجدُ أن المحاربة الإيجابية لم تنفع فاترك المعاشرة معهُ. وانّ ترك المعاشرة وعدم الاعتناء به واللامبالاة بالنسبة له قد تؤثر.

تخلّف عن معركة تبوك أفرادٌ، وذهب الرسول (ص) إلى المعركة، وعندما عاد، جاءوا لاستقبالهِ بكلِّ وقاحةٍ فقبل أن يصلوا إليه، أمر الرسول (ص) أصحابه بأن لا يتكلّموا معهم. فتقدّموا وسلّموا، فأجابهم الرسول (ص) ولم يتحدّث معهم بعد. وهكذا فعل المسلمون فلم يحدّثوهم. فعادوا إلى بيوتهم وأخبروا زوجاتهم بأن الرسول (ص) أمر المسلمين بترك معاشرتهم. فتركت النساء والأطفال معاشرتهم أيضاً وقد ضاقت عليهم الحياة حتىٰ رحلوا إلى الصحراء وبدأوا بالبكاء والتضرّع حتىٰ قُبِلَتْ توبتهم وأرسل الرسول (ص) وراءهم. وعندما جاءوا نزلت هذه الآية:

﴿وعَلىٰ الثّلاثَةِ الّذينَ خُلّفُوا حتّىٰ إذا ضاقَتْ عليهِمُ الأرضُ بِما رَحُبَتْ وضاقتْ عليهِمْ أنْفُسَهُمْ وَظَنّوا أن لا ملجأَ مِنَ اللّهِ إلاّ إليهِ﴾[2].

تقول هذه الآية الشريفة إن المحاربة السلبية لازمةٌ. فنقرأ في الروايات لا

---

(١) سورة لقمان/ الآية ١٣.

(٢) سورة التوبة/الآية ١١٨.

تزوّجوا شارب الخمر، ولا تتزوّجوا منه، أو لا تعاشروا آكل الربا والفاسق. فمثلاً لو ترك الناس معاشرة آكل الربا ولم يشتروا منه شيئاً ولم يبيعوه شيئاً فإنه سيغلق محلَّهُ. وإنْ ترك الناسُ معاشرة المجرم فإنّهُ يتوبُ. لذا نوديَ شعيب النبي، أنْ يا شعيب! سأهلك مائة ألفٍ من قومِكَ، أربعون ألفاً منهم شرارٌ وستون ألفاً منهم أخيار.

قال: إلهي تهلك المذنبَ بذنبه فما ذنب الأخيار؟

قال: بسبب أنّ المجرم أذنب، وهؤلاء سكتوا ولم يُبالوا.

أهم مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمران فلو حققنا هذين الأمرين التزم الإنسان وانتظم.

كان الإمام الصادق (ع) يوصي أصحابهُ ويقول: كُونُوا دُعاة للنّاسِ بغيرِ ألسنَتَكُمْ. فإن كان الزوج مؤدباً في بيته وكانت الزوجة متواضعة أمام زوجها، فإن ذلك يؤثر على الأطفال. فأفعال الوالدين وحركاتهم وسكناتهم تؤثر تأثيراً كبيراً في أطفالهم.

الغيبة:

أول مرحلة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي اجتناب الغيبة لأنّ الغيبة تغير هويّة الإنسان وذاته وتجعلهُ بصورة كلبٍ. فإنْ لم يَتُبْ فإنه يدخل بتلك الهيئة، فهذا الكلب يحتاج إلى الطعام في جهنم، يقول الإمام الحسين (ع): إن طعامه هو الغيبة التي اغتابها والغيبة تكون بصورة أوساخ ودم ولحم فاسدٍ فيأكله المغتاب أمام أهل النار كالكلب الذي يأكل جثة ميتة وفاسدة أمام الناس.

كنتُ مع أستاذي العظيم المرحوم العلاّمة الطباطبائي طوال ثلاثين عاماً. وثلاثين عاماً مع أستاذنا العظيم قائد الثورة، وأقسم بأرواحهما أنني لم أجد منهما حتى ما يشابه الغيبة. لم أنسَ حينما جاء قائد الثورة العظيم إلى مسجد سلماسي للتدريس. كانت أنفاسه سريعة وقال من علىٰ المنبر: والله لم أخف هكذا لحد

الآن. وأضاف: لم أحضر للتدريس بل جئتُ لأ تحدّث قليلاً. إنني أحضر درسه مدة ١٠ ـ ١٥ سنة ولم أرَ منه جسارة أو اهانة للطّلاب، لكنه قال الآن:

إنْ لم يكن لك علم، وإن لم يكن لك عقل، وليس لك دين، فكن عاقلاً ولا تغيّر هويّتك وذاتك الإنسانية.

ثم عاد إلى المنزل وعاودتهُ الحمّىٰ المالطية، وبقي في بيته ثلاثة أيام لأجلها. لماذا حدثت كل تلك الأمور؟ انه كان قد سمع أحد الطلاّب اغتاب أحد المراجع. لم يُغتب هو بل كان المُغتابُ أحد الطلابُ فلماذا؟ لأنّه أدرك سوء الغيبة. فلماذا نغتاب نحن؟!

ولماذا لا نذكر الجوانب الإيجابية؟ ومَنْ ليس فيه جانباً إيجابياً؟ فإن لم ترغب في ذكر حسنات الآخرين، فلا تذكر عيوبهم أيضاً، فلو رأيت لي عيباً ولم تذكره ورائي وجئتني تقوله لي وتلومني عليه فقط لتذكر عيوبي فذلك ذنب عظيم أيضاً.

ينقل المرحوم ثقة الإسلام الكليني في الكافي: مَنْ عير مؤمناً ولو في معصيةٍ ابتلاهُ الله بها. واعتبر القرآن ذلك حراماً وقال:

﴿ويلٌ لكلِّ هُمَزةٍ لُمَزةٍ﴾(١).

فليعلم الذين يغتابون ويتهمون الآخرين باسم الانتقاد أنّ الشيطان غَلَبَهُمْ وقيّدهم ويجب كسرُ هذا القيد. وهذه مرحلة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الموجودة في السلوك والآداب الإسلامية.

إيجاد الحوزات العلمية:

والمرحلة الثانية أو القسم الثاني هو يجب على الأمة الإسلامية إنشاء الحوزات العلمية ورعاية شؤونها بشكل كفائي، ويقول القرآن عن وجود هذا الأمر:

---

(١) سورة الهمزة/ الآية ١.

﴿فَلَولا نَفَرَ مَنْ كلِّ فرقةٍ منهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقّهُوا فـي الدِّينِ وَلِـيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إلَـيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

فإيجاد الحوزة من وجهة نظر القرآن هي أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وواجب مؤكّد ورعاية الحوزة واجب كفائي على الجميع، لذا يجب شكر قم وأسواق قم، وفي هذه الأعوام الثلاثين التي قضيتها في الحوزة، كان لسوق قم حقّ بعاتق الحوزة كما أن للحوزة حقٌّ بعاتق مدينة قم، ويجب أن تفتخر لوجود الحوزة فيها. ومما لا شكَّ فيه أن الحوزات العلمية كانت ولا تزال تُرىٰ بواسطة السوق والتّجار مالياً أي أن التجار والكاسبين هم الذين يعطون سهم الإمام عادةً. أما المزارعون والأفراد العاديّون فليس لديهم ما يدفعونه لسهم الإمام. فسهم الإمام هو من مسؤوليات السوق والتجار ويجب شكره. وبالتالي يجب كفائياً على السوق والمزارع والعامل وعلى الجميع إدارة الحوزة ورعايتها وعلى الشباب واجب كفائي إيجاد الحوزات وحفظ نشاطها.

إِحياء الشعائر الإسلامية:

والثالث من أقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أن يكون هذا الأمر محيياً للشعائر الإسلامية. فالذين سافروا إلى الحجاز شاهدوا هيئة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، هيئة تضرب الشيعة وتهينهم بدلاً من إحياء شعائر الله وإحياء الدين. فلو قَبَّلَ أحدُ الشيعة ضريح الرسول (ص) (وقد جاء العاشق إلى المعشوق ليقبل جداره) لا يسمحون لهُ، فما ذنب مَنْ يفرّق بين العاشق والمعشوق؟ فذنبه أكبر من نهيه ومنعهِ. وقد ذكرتُ أن الحسين (ع) يقول: مَن يفرّق بين المرء وزوجهِ فكأنّما مَثَّلَ بهما فأصبح عمل هؤلاء إيجاد التفرقة بين النبي وأمّتهِ. ويقول القرآن:

﴿ولْتَكُنْ منكُمْ أمّةٌ يَدْعُونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عنِ المنكرِ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة/ الآية ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران/ الآية ١٠٤.

الرقابة الاجتماعية:

القسم الرابع هو الرقابة الاجتماعية، وعلينا أن نراقب بعضنا بعضاً. فيجب تعطيل الأسواق حين الصلاة، ويدعو بعضنا الآخر إلى الصلاة. فلو رأيتم أحداً يذنب لا تتركوه لحالِهِ، كما يجب أن لا تذنبوا فعليكم أن تمنعوا الآخرين من ارتكاب الذنب أيضاً؛ لأن الذنب نارٌ. ولو كانت النار في بيتك فإنها تحرقه، ولو كانت في بيت صديقك فإنها تحرقه أيضاً، لا تَدَعُوا البيت ينهدم، وإنْ لم يقبل نصيحتكم فقد سقط عنكم التكليف.

وعندما نزلت الآية الشريفة: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسكُم واهليكُمْ**﴾[٢] قال الأصحابُ يا رسول الله! لم يكن تكليفنا قليلاً وأضيف إليه تكليف ومسؤولية أولئك أيضاً؟! قال الرسول (ص): عليكم أن تقولوا لهم فإن لم يتقبّلوا فقد سقط عنكم التكليف.

هل يمكن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلزام الإنسان وتقييده؟

نعم يمكنه في الأحوال العادية، ولكن لو ثارت الغريزة. فلا ينفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما لم ينفع العقل والعلم والوجدان الأخلاقي والقانون. والشيء الوحيد الذي يمكنه إلزام الإنسان هو الإيمان.

فعندما يهذّب نفسه تنمو في قلبه شجرة الإيمان، وعند ذلك سيُلزِمُهُ علمُ اليقين (المرتبة الأولى لليقين).

كان المرحوم الميرزا الصغير (المرحوم الميرزا محمد تقي الشيرازي) عالماً فذّاً ولم يشكك أحدٌ في أنه مرجع التقليد بعد الميرزا الكبير (المرحوم الميرزا حسن الشيرازي الذي أفتىٰ بتحريم التنباك).

توفي الميرزا الكبير عند غروب الشمس، ووصل الخبر إلى الميرزا الصغير، انتابته فرحة ووسوسة للمنصب الذي سيحصل عليه، فتألّم كثيراً وأخذ

---

(٢) سورة التحريم/ الآية ٦.

بالبكاء حتى الصباح. كان من المقرر أن يأمَّ الصلاة على والدهِ لكنه لم يظهر حينذلك. حضر تشييع الجنازة، وعندما تمّ التشييع ووضعتْ الجنازة على الأرض، ذهب، ثم وجدوهُ في السرداب المطهّر وقد تورمتْ عيناهُ من كثرة البكاء. قالوا له تعالى للصلاة.

قال: كلاّ أنا لستُ مرجِعاً.

قالوا: سيّدنا إنّ الناس مُستعدّون.

قال: كلا أنا لستُ مَرجِعاً؛ لأنني طلبتُ من إمام العصر (عج) بحق ضلع أمّهِ المكسور أن يرفع عنّي هذا الحمل الثقيل؛ لأنّ القلب الذي يحبُّ الرئاسة ليس أهلاً لهذا المقام، فلن أكونَ مرجعاً، وبالتالي لم يصر مرجعاً، ولم يكتب رسالة أبداً.

عندما جعلَ صاحب الجواهر مسؤولية المرجعية على عاتق الشيخ الأنصاري، رأىٰ الشيخ أنّ الحمل ثقيل جداً لا يمكنه تحمّله، لذا قال للطلبة: إنّكُمْ مخطِئونَ، كان لي صاحبٌ أدرسُ معه وهو أعلمُ منّي وهو مرجعٌ في مازندران. فذهب إليه الطلبة، وعندها قال: كلاّ أنا لستُ مرجعاً والمرجع هو، وأراد الفرار من ذلك، أنا كنت أعلم، لكنني جئتُ إلى مازندران قبل ١٠ سنين، في حين أنّهُ كان يدرس طوال هذه المدّة، وأنا تركتُ الدرس فأنا إمام جماعةٍ هنا، وهو الأعلمُ، فاذهبوا إليهِ. فالذي يهذّبُ الشيخ الأنصاري هو الإيمان، وإن ما يقيّد الميرزا الشيرازي ويرىٰ نفسه ضعيفاً وفيه حبّ للرئاسة فيسحق نفسه ولا يقبل المرجعية هو الإيمان، ذلك الإيمان القلبي الذي رسخ في قلبه بسبب تهذيب النفس.

تذكر الروايات أن الرسول (ص) عندما كان يعزم على الحرب كان يضعُ أفراداً لرعاية شؤون البيوت فيها، جعل شاباً لحماية المنازل والإشراف عليها.

كان يذهب من بيتٍ إلى بيت، فوصل إلى بيت صديقهِ وطرق الباب. فجاءت زوجته خلف الباب وقال لها ماذا تحتاجين لاعدّهُ لكِ؟

فتحت المرأة الباب ودخل الرجل الذي بدأ الشيطان يوسوس له، فلمس المرأة بشهوةٍ، فصاحت المرأة فجأة وكأن حيّة لدغتها: النّار، النّار، ماذا تفعل؟

فاحترق وكأنّ شرارة أصابت مخزن نفطٍ. فخرج من البيت وهو يصيح كالمجنون، النّار، النّار وصل الخبر إلى الرسول (ص) بأن ذلك الرجل ارتكب ذنباً وهو يصيح في الصحراء.

فأخبر الله رسوله (ص) بأني غفرتُ له فارجعْهُ وعند ما جاء كان النبي مشغولاً بالصلاة فوقف في الصفّ وهو يستحي من النظر إلى رسول الله (ص)! صعد الرسول (ص) المنبر. فأطرق الرجل برأسهِ إلى الأرض. فتلا الرسول سورة «الكوثر»:

﴿ألهاكُم التَّكاثُرُ حتّىٰ زُرْتُـمُ الـمَقابِرَ كَلاّ سَوْفَ تَعْلَـمُونَ ثُمَّ كلاًّ سَوْفَ تَعْلَـمونَ كَلاّ لَوْ تَعْلَـمونَ عِلْـمَ الـيَقـينِ لَتَرَونَّ الـجَحيـمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الـيقـينِ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعيـمِ﴾.

وفجأة سقط الشاب، وعندما جاؤه وجدوه قد أغمي عليه وماتَ.

فما الذي يهذّبُ ويبني هذا الرجل وهذه المرأة؟ الإيمان. وخلاصة الكلام هي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب وضروري لكن الذي يُلزِمُ الإنسانَ ويقيّدهُ هو الإيمان فقط.

أثر الإيمان العقلي

في تنظيم الغرائز

ما هو الإيمان العقلي؟

العامل السادس الذي ذُكرَ لتنظيم الغرائز وتقييدها هو الإيمان العقلي. والإيمان العقلي هو إثبات وجود الله والنبوة، والإمامة والمعاد، والجنة والنار عن طريق البرهان وعلمِ الكلام. أي يدرك أصول الدين بالدليل. قيل إن هذا العامل يشكّل قوّة لتنظيم الإنسان وإصلاحهِ وذلك عندما يحصل الإنسان على اليقين بواسطة البرهان، ويتيقن بوجود الجنة التي يدخلها المحسنون ووجود النار التي يدخلها المُسيئون، أو يعرف بواسطة البرهان أن الله حاضر في كل مكان فإنهُ يهتدي ويلتزم لا إرادياً ولو أرادت إحدى الغرائز الطغيان فإن هذا الاعتقاد يمنعها. وبحثنا هو أنّ هذه القوة رغم أنها مهمة لكنها بلا فائدة ولا يمكنها منع الإنسان الطاغي والمعاند والوقوف أمامَهُ. لذا يكتب كل الفقهاء والمجتهدين في أوّل رسائلهم العملية لا يجوز التقليد في أصول الدين. أي يجب على كل إنسان أن يثبت وجود الله بنفسهِ وحسب حالتهِ وفهمهِ، حتى العجوز الأميّة البدوية عليها أن تذكر دليلاً لإثبات وجود الله مناسباً لحالها وعقلها.

هناك رواية مشهورة تذكر أنّ الرسول (ص) كان يمشي فمرّ علىٰ عجوز، وهي تغزل الخيط. قال: ما هو دليلكِ على وجود الله في هذا العالم؟

رفعت يدها عن مغزلها، فوقف المغزل. قالت يا رسول الله: إنّ هذا المغزل الصغير يحتاج إلى قدرة يدي، فإن لم تكن يدي لم يَدُرْ المغزل، فهذا العالم يحتاج إلى مدبر ومحرّك حتماً. قال الرسول (ص): عليكُمْ بدين العجائز.

إن دليل هذه العجوز هو أحد الأدلة المهمة ويسمى برهان الحركة في فلسفة الملاّ صدرا، لكنْ على أيّة حال لو ابتعدنا عن الفلسفة ونزلنا عن مستواها قليلاً فهو دليل مناسب لحال الجميع. لذا يكتب الفقهاء: إنّ على الجميع أن يثبتوا النبوّة والمعاد والإمامة حسبَ حالهم وعقلهم وعلمهم. «توحيد المفضل» كتاب جيدٌ في هذا الباب وإن مضمونه يدلُّ على تقرير الإمام الصادق (ع). وزيارة الجامعة زيارة عجيبة أرجو منكم أن تقرأوها كلَّ صباح، فهي نشيد صباحيّ وعليكم التوسل بصاحب الزمان (عج) كلّ صباح، فقد أمضى ولي العصر (عج) هذه الزيارة وقال: نعم الزيارة هذه. كان قائد الثورة يقول: وإن لم يكن لها سند فمع ذلك هي كافية، لأَن غير الإمام لا يمكنه أن يصبَّ ألفاظاً ومعاني في قالب كهذا.

توحيد المفضل كتاب جيّد. فلا يوجد أفضل منه وأفضل من الروايات التي أوردها العلامة المجلسي رحمهُ الله في البحار سوىٰ القرآن. لعلّ في القرآن أكثر من ألفِ آية ترتبط بالمعارف الإسلامية فقد ذكر وجمع برهان الصديقين وبرهان النظام، وبرهان الحدوث والحركة للملاّصدرا في ألفاظ ذاتِ معنى ومغزىً، لذا ذكر القرآن كل البراهين التي ذكرها الفلاسفة ومنهم الملاّ صدرا لإثبات وجود الله في الأسفار الاربعة وغيرها، بشكل واضح ومُبين جداً، ولا يكتفي بإقناع العقل بأصول الدين بالبرهان والدليل بل يعتبرنا مسؤولين أمام الآخرين أيضاً. وبالأخص الشباب الأعزاء عندما يلتقون مع المخالفين للدين والمنحرفين. فإن سألوهم وأشكلوا عليهم يجب أن يستطيعوا إقناعَ عقول أولئك أيضاً.

يذكر القرآن الكريم برهاناً لإثبات وجود الله بالإشارة تارة وبالتصريح تارة أخرى ويقول:

﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وَفي أنْفُسِهِمْ حتّىٰ يتبيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحَقُّ﴾[1].

---

(١) سورة فصلت/ الآية ٥٣.

﴿أفي اللّهِ شكٌّ فاطِرِ السّماواتِ والأرضِ﴾[1].

يصرُّ القرآن الكريم على أمرين بالنسبة للإنسان: أحدهما نبرة الصوت والآخر شكل وتشابه الخطوط والعلائم الموجودة في الإنسان. يعيش الآن ثلاثة مليارات إنسان أو أكثر على الكرة الأرضية. فلا تجدون فردين متشابهين تماماً، ان المصنع يصنع أواني كثيرة متشابهة تماماً وليس كذلك ثلاثة مليارات نسمة، بل مهما خُلِقَ إنسانٌ منذ زمن آدم (ع) وحتى يوم القيامة فهم غير متشابهين بل مختلفين تماماً بل وحتى التوأمين مختلفين. وهذا هو مصداق برهان النظام، أليس هذا، دليلاً على وجود مدبّر حكيم وعالم لهذا الكون؟ لذا يقول القرآن:

﴿ومِن آياتهِ خَلْقُ السّماواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتِكُمْ وألوانِكُمْ﴾[2].

ويقول في سورة القيامة:

﴿لا أقسمُ بيومِ القيامةِ، ولا أقسمُ بالنّفْسِ اللّوّامةِ أيَحْسَبُ الإنسانُ ألّنْ نَجْمَعَ عظامَهُ﴾[3].

في هذا الكلام نكتة مهمة. يقول الخبراء ببصمة الأصبع: إن خطوط البنان تختلف من شخصٍ إلى آخر. ويقولون: لا يمكن أن نجد شخصين تتشابه لديهما خطوط البنان منذ زمن آدم (ع) وحتى يوم القيامة. لذا يقولون: يمكن تزوير التوقيع ولا يمكن في البصمة بالأصبع. لذا تُؤخذُ البصمةُ في الأمور المهمة بدلاً من التوقيع. أليس هذا دليلاً علىٰ وجود مدبّر حكيم لهذا العالَم. الكون متّحدٌ وكل أمرٍ فيه مرتبط بالآخر ومعتمدٌ عليه، وإنّ لم يكن كذلك لهلك العالَم. للكرة الأرضية ست عشرة حركة، فمن إحدى حركاتها يحدث الليل والنهار، ومن الأخرى تنتج السنة و... فمن بداية بحثنا هذا وحتى الآن تحركنا وطوينا أكثر من مليون فرسخ. أين تذهب الأرضُ؟ يقول العلم لا أعلم،

---

(١) سورة إبراهيم/ الآية ١٠.

(٢) سورة الروم/ الآية ٢٢.

(٣) سورة القيامة/ الآية ١ و٢ و٣.٤

وهكذا يقول القرآن: ﴿لِمُستقرٍّ لها﴾[٣]. فهذه المليون فرسخ التي طويناها لو زادت أو قلّت بمقدار فرسخٍ واحدٍ فإن ذلك كتصادم سيّارتين، فيهلك عالم الكون ويتناثر. كالسيارات التي تمشي في صفٍ واحد فعندما تتوقف إحداها تتصادم سائر السيارات. فلو اصطدمت الكرة الأرضية بكرةٍ أخرىٰ فإنها ترتمي في الفضاء وتتناثر وتذوب. فإنها منذ أن خلقها الله كانت بهذا النظام والحركة الدقيقة، ولا زالت ولم تصطدم وهي تؤدي وظيفتها بأفضل شكل فمن أوجدَ هذه الحركة وهذا النظام وهذه الدّقة؟

الإيمان العقلي في مقابل الإنسان العاصي:

كان هناك معلم منجمٌ وموحد وكان له منافس منكرٌ لله، فكلما كان ينصحه كان الآخر ينكر. كان لي جليس أتحدّث معه (أطالَ الله عمره). كنتُ أتحدّث معه نصف ساعةٍ وبعد نصف ساعة كان يقول لا، وأبداً مرّة ثانية، وأتحدّث ربع ساعة ومرّة أخرى يقول لا. وبما أنّ ذلك الموحّد كان منجماً فكان قد أعدَّ في غرفتهِ منظومة شمسية، وهذه المنظومة عندما كان يضغط الزرّ الكهربائي فيها تتحرك نجمة «وگا» ثم تتبعها المنظومة الشمسية. وللكرة الأرضية حركة وضعية فيها فتدور حول نفسها وتدور حول الشمس بحركة انتقالية.

دعا صديقه العنيد يوماً إلى غرفته ومصنعهِ، وعندما جاء صديقه ضغط الزرّ الكهربائي من دون أن يعلم صديقهُ فآشتغل الجهاز، وشاهد الرجل المنظر العجيب. وأعجبَ به، قال مَن الذي صنعهُ لك؟

كان الرجل الموحّد مطرقاً رأسه إلى الأرض وهو يكتب شيئاً أجابهُ بلا مبالاة، وقال انها الصدفة.

قال: لا تستهزئ، مَنْ الذي صنعها؟

---

(١) سورة يس/ ٣٨.

قال: قلت لك إنها الصدفة!

قال: أنا لستُ مجنوناً، فلا تسخر مني وقلْ مَنْ صنعها؟ فرفع الرجل الموحّد رأسهُ وقال إنها ليست سوى كرات صغيرة ولا تستطيع إقناع عقلك بأنها صُنِعَتْ صدفة، فكيف يمكنك أن تقول بأن هذا العالم الوسيع والذي تشكّلَ المنظومة الشمسيّة فيه قطرة وذرة في صحراء، أنهُ خُلِقَ وحده وصدفة؟!

على أيّة حال لم يقنع ذلك الرجل الملحد والعنيد بأنّ لهذا الكون مدبّراً حكيماً وعالماً. يبيّن القرآن الكريم برهان نظام الملاّ صدرا أو برهان نظام ذلك الرجل الموحّد ببيان جميل ويقول:

﴿إنَّ في خَلْقِ السّمٰواتِ والأرضِ واختلافِ اللَّيلِ والنّهارِ لآياتٍ لأولي الألْبابِ﴾[1].

إعجاز القرآن:

يقول القرآن يجب أن تكون أصول الدين بالاجتهاد. فيجب أن تعلموا كيف يمكن إثبات المعاد، ويجب أن تستطيعوا إثبات لماذا القرآن معجزةٌ؟ يقول القرآن، أنا معجزة، والدليل على إعجازي هو انه لا يمكن لأحد أن يأتي بآية أو سورة من مثلي.

﴿قلْ لَئِنْ اجتمعتِ الانسُ والجِنُّ على أنْ يأتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ﴾[2].

فقد سعى الكثيرون لكي يأتوا بمثل القرآن فلم يمكنهم ذلك، والآن نقول هذا أيضاً، فأنا أعلنُ نيابة عن كل المسلمين لو جاء أحدٌ بسورة مثل القرآن فإنا نترك الإسلام.

لإثبات إعجاز القرآن طرقٌ مختلفة. أحدها فصاحة القرآن وبلاغتهُ. وهذا ما يدركهُ العرب. والدليل الآخر على إعجاز القرآن هو عدم وجود الاختلاف في

---

(١) سورة آل عمران/ الآية ١٩٠.

(٢) سورة الإسراء/ الآية ٨٨.

القرآن، فقد نزل على الرسول (ص) طوال ٢٣ عاماً، ولو أراد الإنسان أن يتحدث ويؤلّف كتاباً خلال ٢٣ سنة فإن رأيه وفتواهُ واعتقادهُ يختلف ويتغيّر. وإننا نرىٰ الشيخ الأنصاري رحمهُ الله الذي كتب الفرائض فإن بدايته تختلف عن وسطهِ وهذا يختلف عن نهايته وخاتمتهِ اختلافاً كبيراً. فيكثر التناقض واختلاف الفتوى في الفرائض. كتب المرحوم الآخوند الخراساني رحمهُ الله كتاب الكفاية ورغم أنّه حقق فيه مرّات عديدة ونقّحه تلامذتهِ ففيه أكثر من عشرة تناقضات واختلافات.

﴿ولَوْ كانَ مِن عِندِ غيرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كثيراً﴾[1].

ومن جهة أخرى فإن للإنسان حالة معينة عند الهم والغمّ والحزن تختلف عن حالته في النشاط والسرور فإنّ حديثه وكلامه في حالة الفقر يختلف عن كلامه في حالة الغنى ولكلٍّ من حالات الحرب، الرئاسة، الذّلة و... وضع خاص وكلام معيّن يختلف في كلّ حالة عن غيرها.

ولهذا كان الرسول (ص) طوال ٢٣ عاماً مبلغاً ورسولاً فقط، فقد كان في الظاهر في الفقر والذلة، قضى ثلاثة أعوام مسجوناً في شِعب أبي طالب، فُرِضَتْ عليه ٧٤ معركة. وفي فترة كان له ١٢ ألف جندي مجهّز يحوطونه بحيث عندما كان يتوضّأ لم يتركوا قطرة واحدة من وضوئِه تسقط على الأرض فكانوا يضعون أيديهم ليشربوا القطرات المتساقطة من وضوء النبي (ص)، ومع ذلك فإنّ أسلوب القرآن واحد من بدايته وحتى خاتمتهِ. ولو كان القرآن من عند غير اللّهِ لشوهِدَ فيه اختلافٌ في الفتوى وتناقض في الرأي، والنسيان والغفلةِ. لكن جميعه بأسلوب واحد وليس فيه خطأ ولا تناقض، ويُقال لهذا، معجزةُ القرآنِ.

برهان العقل والنفس الأمارة:

تعلّم أصول الدين ومعرفتها هل يمكن أن يكبح الغرائز العاصفة

---

(١) سورة النساء/ الآية ٨٢.

والمضطربةَ؟ كلاّ، لأننا نعرف كثيراً من الناس مجتهدين في الفلسفة ولهم ذنوب كثيرة. وكثيراً ما نرىٰ أفراداً أطعَمُوا العقل بواسطة برهان النظام وأسمى منه لكنهم لم يتمكنوا من منع واجتناب الغريزة الجنسيّة وحب الرئاسة.

ينقل أنه في حرب الروم رأوا غلاماً يهجم على العدو ثم يفرُّ الجيش. أخفىٰ الغلام نفسه بين الجند كي لا يعرفه أحد. كنتُ أراقبهُ لأراهُ وأشكرهُ، فذهب إلى جانب منعزلٍ وبدأ بالدعاء وقال: إلهي استطعتُ إبعاد جيش كاملٍ لكنني لم أستطعْ بعد التسلط على نفسي الأمّارة! إلهي إجعلني أغلبُ نفسي الأمارة.

﴿إنَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسُّوءِ إلاّ ما رَحِمَ رَبّي﴾[1].

وينقل عن أحد العلماء أنّه كتب كتاباً في إثبات وجود الله، **﴿أحسبَ الناسُ أنْ يُتركوا أنْ يقولوا آمنّا وهُمْ لا يُفتنونَ﴾**[2] فالاختبار للجميع وبالأخص لنا. فعندما يُصاب الإنسان بمصيبة يقول القرآن الكريم: إننا نختبره لنبني له قدراته واستعدادَهُ، فكان هذا العالِمُ مبتلى بالفقرِ. اغتمَّ كثيراً بسبب الفقر والمسكنة، فذهب إلى الصحراء وجلس إلى جانب ماءٍ فظهر له منظرٌ سيءٌ سبب عودتهِ إلى البيت وتأليف كتابٍ ضدّ نفسهِ، أي كتب كتاباً ضد الإسلام. وأن لا وجود للّهِ في العالَمِ. فكتب الشاعر أبياتاً شعرية في هذا الصدد في جامع الشواهد مضمونها: أرىٰ كثيراً من العقلاء هم في ضيقٍ اقتصادي وما أكثر الجهلاء والحمقىٰ وهم في رفاهٍ وراحة، وهذا الموضوع جعل من العالم المتخصص في علم الكلام، جعل منه زنديقاً.

لو وصل الإنسان إلى نهاية المطاف وإلى زقاق مُغلق، ولم يكن له حلٌّ آخر، فقد يسحق العقلَ والعلم وعلم الكلام وبرهان الصدّيقين والنظام وبرهان الحدوث وغيرها. فنحن بحاجة إلى عاملٍ آخر وهو الإيمان فقط، الإيمان

---

(١) سورة يوسف/ الآية ٥٣.

(٢) سورة العنكبوت/ الآية ٢.

الراسخ في القلب والحاصلُ عن طريق العمل. الإيمان الذي تكون أول مراحله أن يرى الله بعين قلبهِ وبصيرتهِ، ويراهُ حاضراً وناظراً دائماً.

قيل للمقدسي الأردبيلي (رحمهُ الله): لو كنتَ في بيتٍ ليس فيه سوى امرأة فهل تزني بها أم لا؟ فلم يقل لا، بل قال: أعوذُ بالله من هكذا منظرٍ يحدث لي!

من المستحيل أن لا يقع الإنسان في الإمتحان والمصيبة، وفي تلك الأحوال يجب أن يكون له ملجأ وثيق يُعينهُ عند الشدائد.

﴿ومَنْ يتوكَّلْ علىٰ اللّهِ فهُوَ حَسْبُهُ﴾[1].

كان الوليد بن المغيرة ريحانة الأدب، وقد لقّبهُ العرب بذلك. وكان فصيحاً وبليغاً حقاً. حضر إلى المسجد الحرام في مكة يوماً ورأىٰ النبي (ص) وهو يقرأ القرآن. فأخذ الوليدُ القرآن بيدهِ وأيقن بأنّهُ من الله تعالى. جاء إلى أصحابهِ كأبي سفيان وأبي جهل وقال: أسلمتُ.

يلزمنا هنا ذكر نكتةٍ وهي: لا يتغلب عليكم التعصّب، لا تميلوا إلى حزب أو جماعة أو شخص بل كونوا مع الحقيقة والواقع. فالإنسان الوطني والحزبي وغيره يحصل له العناد واللجاجة، وعند ذلك تُسحق الحقيقة. لقد تأسّف قائد الثورة مراراً وقال: هل يمكن قطع جذور الرذائل بهذه السرعة. فمحو صفةٍ رذيلة يحتاج إلى عشرين عاماً يقضيها الإنسان بالتعب والنصب.

كان أستاذنا العظيم المرحوم آية الله البروجردي رحمهُ الله ينصحنا ويقول: عشرين عاماً في تعب وألم يحتاجها الإنسانُ ليُبعدَ عن نفسه حب الشهرة والرئاسة، لذا كان يقرأ هذه الرواية: آخرُ شيء يخرجُ من قلوب الصدّيقينَ حبّ الجاه.

أسلم الوليد علمياً، وله جملة فصيحة وبليغة جداً تساوي روايتنا، وقد

---

(١) سورة الطلاق/ الآية ٣.

أعجب بعبارتهِ كل أهل البلاغة: قال: إنّ لهُ لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وان أعلاهُ لمُثمرٍ وانّ أسفلهُ لمغدق وإنّهُ يعلو ولا يُعلىٰ عليهِ. وحقيقة إنّ القرآن كما قال الوليد شجرةٌ مثمرةٌ لها جذور عميقة لا يمكن قلعها وانه كتاب الله لا يمكن لأحد أنْ يأتي بمثلهِ.

فرأى أبو سفيان وأبو جهل وأمثالهما أنّ إسلام الوليد يسبب لهم أضراراً كبيرة. كان أبو جهل رجلاً مكاراً وشيطاناً، قال: وجدتُ الحلّ. جاء إلى الوليد وأظهر أنّه حزين.

قال الوليد: لماذا أنت حزين يا أبا جهل؟

قال أبو جهل: الحقيقةُ ان الناس يقولون إنك جننتَ ودخلت الإسلام ليعطوك مالاً ومقاماً. كان هذا الكلام ثقيلاً على الوليد أي ظهرت غريزة حبه للرئاسة والشهرة. فرجع عن رأيهِ وبدأ يفكر بما يقولهُ ضدّ النبي (ص)، هل يمكن القول بأنه مجنون؟

قال الجميع: كلا، فإنه عاش ٤٠ عاماً بيننا بكياسة، فكيف نسمّيه مجنوناً!

وهل يمكن أن نسميه كاذباً؟

قالوا: كيف نسميه كذّاباً وقد عاش ٤٠ عاماً بصدق وأمانة وعُرِف بهما!

وهل نسميه شاعراً؟ قالوا لم نرَ منه بيتاً شعرياً واحداً قط طوال ٤٠ عاماً، وكل ما يقوله بعقل وتفكير. فنزلت آيات تقول:

﴿إنّهُ فكّرَ وقَدَّرَ، فَقُتِلَ كيف قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كيفَ قَدَّرَ، ثم نَظَرَ، ثم عبسَ وبَسَرَ ثمَّ أدْبَرَ وآستكبر، فقال إنْ هذا إلا سحرٌ يُؤثَرُ إنْ هذا إلاّ قولُ البَشَرِ﴾[1].

لماذا يفعل الوليد هكذا وهو الذي قال: يعلو ولا يُعلىٰ عليه؟ فلا قضىٰ

---

(١) سورة المدّثر/ الآية ١٨ و٢٥.

الله للإنسان أنْ يقع في الابتلاء والحالات الاستثنائية! يقول المأمون إنني تعلمتُ التشيّع من أبي. وحقيقة أنّهم شيعة ولكن الشيعة التي تقتل الإمام المعصوم! كان هارون يعرف الإمام موسى بن جعفر (ع) جيداً، وكان يعرف الإمام الرضا (ع) أيضاً، لذا يقول إنني تعلمتُ التشيّع من أبي. كنتُ عند أبي فجاء موسى بن جعفر (ع) فجاء أبي خلف الباب راكضاً وآحتضن موسىٰ وأجلسه على مكان مرتفع وجلس أمامه كالعبد الذليل وقد غلبتهُ هيبة الإمام ولم يستطع التكلّم. وعندما سكن حالهُ قال لي ولأخي الأمين: استقبلوا الإمام وأوصلوهُ إلى البيت. فأخطأتُ وسألت أبي مَنْ كان هذا؟ قال هو الذي يستحق الخلافة وهي متعلّقة بهِ.

قلتُ: الخلافة لهُ؟ فلماذا لا تعطيها إيّاه؟!

قال يا بني العزيز! الملكُ عقيمٌ. فلو أردتَ الرئاسة لقتلْتُكَ.

فهل يمكن تأديب النفس الأمّارة هذه ببرهان النظام؟ ألم يعرف الإمامَ الحسنَ (ع) الذين ظلموهُ؟ فنفس الذي أمر بضرب جنازة الإمام يروي روايات عديدة عن الإمام الحسن والحسين (ع) وعن الإمام علي (ع)!

نتيجة البحث:

والخلاصة هي أن الإيمان العقلي لا ينفع في إلزام الإنسان وكبح الغرائز، وما يحتاجه الإنسان هو الإيمان الراسخ في القلب، وهو الإيمان القلبي والإيمان الهادي للحركة والسلوك إلى الله تعالىٰ.

الإيـمان القلبـي العامل الوحيد
فـي تنظيـم الغرائز

أقسام الإيـمان ومراتبهِ:

العامل السابع الذي يمكنه إلزام الإنسان هو الإيمان العاطفي. ينقسم الإيمان في القرآن وروايات أهل البيت (ع) إلى ثلاثة أنواع: أحدها هو الإيمان اللساني والذي يسميه القرآن الإيمان الحرفي. أي الإيمان الذي لم يرسخ في القلب والعقل. فيقول القرآن:

﴿ومنَ الناسِ مَن يعبُد اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإن أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ بهِ وإنْ أصابتهُ فِتْنةٌ انقلبَ علىٰ وجههِ خَسِرَ الدنيا والآخِرةَ ذلكَ هو الخُسرانُ المبينُ﴾[1].

ويقول الإمام الحسين (ع) في رواية: الناس عبيد الدنيا والدين لعق بألسنتهم.

ويقول الإمام الصادق (ع) في رواية أخرىٰ: أكثر الإيمان هو الإيمان اللساني والتقليد. ويقول القرآن: لا يمكن لهكذا أفراد أن يحفظوا أنفسهم. فلو كانوا في راحة ورفاة فإن لهم إيماناً (واطمئناناً). لكنّهمْ يتغيّرون في الشدائد، ولا يصبرون عليها، وأولئك هم الخاسرون، ويقول في آية أخرىٰ:

﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هلوعاً﴾[2].

---

(١) سورة الحج/ الآية ١١.

(٢) سورة المعارج/ الآية ١٩.

﴿إذا مَسَّهُ الشرُّ جزوعاً﴾[1].

فإن لم يرسخ الإيمان في قلب الإنسان وعقلهِ فإنّه يجزع عند الشدائد كالفقر والخوف والنقص وغيرها.

﴿وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً﴾[2].

فلا يصلُ إيمان هؤلاء إلى القبر وإلى يوم القيامة وانّ الشيطان مستعدٌّ لسلبِ هذا الإيمان عند الموت.

والقسم الثاني من أقسام الإيمان هو ما تحدثنا عنه. الإيمان الذي رسخ في العقل عن طريق البرهان فأيقن به العقل ودفع عنه الشكَّ والترديد. ولا يمكن للشيطان أخذ هذا الإيمان، لا شيطان الجنّ ولا شيطان الإنسِ، لأن العقل إذا اقتنع ورسخ فيه الإيمان يستطيع الوقوف أمام الشيطان وإقناعه.

قيلَ لو استطاع الإنسان فَهْمَ برهان النظام في القرآن فلن يستطيع الشيطان سلب إيمانه بعد ذلك، ويمكن لهذا الإنسان هداية أصدقائهِ المنحرفين، والأمر المهمّ هو رغم أنّ هذا الإيمان هو درٌّ ثمينٌ لكنّهُ لا ينفع عند طغيان الغرائز والاضطرابات، لذا يوجد كثير من الأفراد يقدّمون أربعين دليلاً لإثبات وجود الله مثلاً لكن الذنب والمعصية ملحوظة في حياتهم. فيمكنهم إثبات وجود الله ولا يمكنهم التغلّب على النفس الأمّارة بالسوء.

الإيمان العاطفي واليقين:

والقسم الثالث من أقسام الإيمان هو الإيمان الراسخ في القلب مقابل القسم الثاني وهو ما أيقن به العقل، فلا يتنافى يقين العقل مع حصول الوسوسة والشك فيه. لكنّ القسم الثالث هو أن القلب اعتقد وأيقن بوجود الله تعالى ويرىٰ دائماً: ﴿أَلَمْ يعلمْ بأنَّ الله يَرى﴾ وأيقن القلب بأنّ: ﴿نحنُ أقربُ إليه منْ حبلِ الوريدِ﴾[3].

---

(١) سورة المعارج/ الآية ٢٠.

(٢) سورة المعارج/ الآية ٢١.

(٣) سورة ق/ الآية ١٦.

فالقلب يعتقد بالمعاد، ويرىٰ نار جهنّم وهو لا يعرفُ البُرهانَ.

كان زيد بن الحارثة جالساً إلى جانب منبر الرسول (ص)، نظر إليهِ الرسول (ص) فرآهُ غارقاً في الافكار. قال: كيف أصبحتَ؟

قال زيد: أصبحتُ موقناً (وهو آدّعاءٌ عظيم). أي لي إيمان عاطفي وقد رسخ الإيمان في قلبي وأيقنتُ بالمبدأ والمعاد.

قال الرسول (ص) وما علاقة ذلك؟

جال نظر زيد في عالم الملكوت وقال: يا رسول الله إنّي أرى الجنة والنّار، أعرف أهل الجنة وأهل النار. فلو تسمح لي أذكر لكم بعضهم. قال الرسول (ص) حسبكَ هذا. وهذا هو الإيمان الذي يصرح به القرآن.

ويقول في سورة الحجرات:

﴿قالَتِ الأعرابُ آمنّا قُلْ لَمْ تؤمِنُوا ولكن قُولُوا أسْلَمْنَا﴾[1].

فالمؤمنُ هو الذي رسخ الإيمان في قلبهِ إيماناً عاطفياً، وإلاّ فالإيمان العقلي والحرفي هو إسلامٌ ظاهريٌ لذا يقول القرآن: الذين لم يرسخ الإيمان في قلوبكم لا يقولوا آمنا بل ليقولوا أسلْمنا **﴿ولمّا يدخُلِ الإيمانُ في قلوبهم﴾**[2] وبرأي القرآن إنّ أول مرحلة للإيمان القلبي تمنع الإنسان من ارتكاب الذنب. وإن لم يصل هذا الإيمان إلى حدّ اليقين وهو في مرحلة الاطمئنان، ولكن لو رسخ في القلب فهوَ قوّةٌ مُلزِمَةٌ ومنظِّمَة.

يقول القرآن:

﴿ويلٌ للمطفِفِينَ الذينَ اذا اكتالوا عَلَى الناسِ يَسْتَوفُون واذا كَالُوهُمْ أو وزِنُوهُم يخسرون، الا يظن أُولَئِكَ انهم مبعوثون﴾[3].

ليس المطفّفون هم الذين ينقصون الأوزان عند البيع بل عدم إعطاء

---

(١) و (٢) سورة الحجرات/ الآية ١٤.

(٣) سورة الطفّفين/ الآية ١ و٤.

حقوق الآخرين هو من مصاديقهم (وذلك ما يفسّره المفسّرون المشهورون تبعاً لما جاء في الروايات). يقول الإمام الصادق: إنّ «للويل» معنى دقيقاً وهو وجود حفرة عميقة في جهنّم اسمها «الوَيْل» يُلقىٰ المطفّفون فيها. وذكر الويل كثيراً في القرآن مثل: **﴿فويلٌ للمصلّينَ الذينَ هُمْ عن صلاتهم ساهُونَ﴾**[1] وكلها من هذا المصداق.

حقُّ الناسِ:

فآجعلوا الوجدان الأخلاقي حاكماً عليكم، فلا تشتروا النّار بهذهِ الدنيا التي لا قيمة لها عند الإمام علي (ع)، ولا تدخلوا جهنَّمَ لأجل بريق هذه الدنيا فتندمون.

قُدِّمَ للشيخ الأنصاري رحمهُ الله مقدار من المال والذهب والفضّة كبير. نظر الشيخ الأنصاري إلى التلميذ الذي يجلس جنبهُ ويظهر أن الذهب قد سَحرَ قلبَهُ. قال هل تعلم ما قيمة هذه الأموال عندي؟ أحجار وصخور بيت الخلاء تتساوىٰ عندي مع هذه الأموال.

كنتُ أقول في أحد الدروس أنّ رجلاً ذهب إلى المحقق ابن اليمين وقال رأيتُ في المنام أنني سقطت في النجاسة وقد تلوثَ جسمي بها. فيقول ابن اليمين انّ منامك حسنٌ جداً وستحصلُ على مالٍ كثير! فما أساس هذا الكلام؟ إنّ دنيا الحلال لا تفي للإنسان بِوعدها فكيف بدنيا الحرام، فمالٌ قليلٌ جداً يحصل عليه الإنسان من الحرام يلوّث جميع مال الإنسان الحلال.

﴿إنّ الذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامىٰ ظُلماً إنّما يأكلونَ في بطونِهِمْ ناراً وسَيَصْلَوْنَ سَعيراً﴾[2].

فالذي ينظر ببصيرةٍ يرى النارَ وعذابَهَا. فاهتمّوا بحقّ الناس كثيراً، وقد أقسمَ الله بعزته وجلالهِ أنّه لا يعفو عن حق الناس وإنْ عفا عن كلّ شيء.

---

(١) سورة الماعون/ الآية ٤ و٥.

(٢) سورة النساء/ الآية ١٠.

يذكر في سورة التكاثر المراتب الأولى لليقين لتنظيم الغرائز.

﴿حتّى زُرْتُم المقابِرَ كلاّ سَوْفَ تعلمونَ ثمَّ كلاّ سوفَ تعلمونَ كلاّ لَوْ تعلمونَ علمَ اليقينِ﴾.

الدُّنيا تُشْغِلُ الإنسان. فلا ينتبه إلاّ وهو كدودة القزّ قد نسجت حول نفسها، وأنّه نائم ويستيقظ فجأة: الناس نِيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا. فيندم ويقول لو تعلمون علم اليقين (علم اليقين هو المرتبة الأولى للإيمان العاطفي) فلو رسخت شجرة الإيمان في القلب بهذا القَدَر لَما أذنب الإنسانُ. لو كان يعلمُ أنّهُ يُلقىٰ في جهنّم بناصيتهِ، ولو كان يعلمُ أنهُ يُسْأَلُ عن النعم التي أعطاهُ الله كنعمة العقل والإرادة، والقدرة والمال والإسلام، والأعظم من هذا كلّه نعمة الولاية، لما كان يرتكبُ ذنباً. وتقول هذه السورة لنا: إنّ الذي يُلزِمُ الإنسان هو الإيمان القلبي والعاطفي ومن خصائصهِ أنّهُ يُزيلُ الهم والغمّ والخوف والاضطراب. فلو رسخ الإيمان في القلب وأدرك الإنسانُ المبدأ والمعاد وأيقن أنّ الله الحكيم وليُّهُ، وأنّهُ عبدٌ وهو المولىٰ، وواجب المولىٰ حفظ العبد وإعطاؤهِ حقّه، فعند ذلك لا تضطرب روحه ولا يخاف من المستقبل.

﴿أَلاَ بذكرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ القلوبُ﴾[1].

﴿أَلاَ إنّ أولياءَ اللّهِ لا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحزنونَ﴾[2].

﴿ومَنْ يتوكّلْ على اللّهِ فهُوَ حَسْبُهُ﴾[3].

وهؤلاء لا يحزنون على ما مضىٰ وما أصابهم من قبل.

﴿ما أصابَ منْ مصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنْفُسِكُمْ إلاّ في كتابٍ مِنْ قبلِ أن نَبْرَأها إنّ ذلكَ على اللّهِ يسيرٌ﴾[4].

---

(١) سورة الرعد/ الآية ٢٨.

(٢) سورة يونس/ الآية ٦٢.

(٣) سورة الطلاق/ الآية ٣.

(٤) سورة الحديد/ الآية ٢٢.

يقول الإمام السجاد (ع) في دعاء أبي حمزة:

اللهمَّ إني أسألكَ إيماناً تباشرُ به قلبي، ويقيناً صادقاً، حتّى أعلمَ أنّهُ لن يصيبني إلاّ ما كتبتَ لي، ورضّني من العيش بما قسمْتَ لي يا أرحم الراحمين.

مراتب الإيـمان القلبي:

ذكر علماء الأخلاق ثلاث مراتب للإيمان القلبي. تسمىٰ المرتبة الأولىٰ علم اليقين ومعناهُ هو أن الإيمان رسخ في قلبهِ وأنّهُ يرى العبد أو المعاد. فقد وصل ببصيرتهِ إلى مقام رفيع بحيث يرىٰ الله تعالى. بمعنىٰ أنّه يدركُ الله ويشعر بوجودهِ. كالعطشان الذي يشعر بالعطش ويدركهُ تحصل هذه الحالة للإنسان عند الشدائد وعندما يصل في أمرٍ وعملٍ لا نجاة منه ولا مفرّ، حتى الإنسان الذي ليس له إيمان قلبي تحصل له هذه الحالة.

يقول القرآن:

﴿فاذا ركبوا في الفُلكِ دَعَوا اللّهَ مُخلِصين فلمّا نجّاهُم الى البر اذا هم مشركون﴾[1].

عندما يتناول الجائعُ الطعامَ يشعر بالشبع ويدركهُ. وتحصل للإنسان حالة أحياناً بحيث يدرك اللّهَ ويجدُ ضالّتهُ عند الشدائد. فهذه الحالة تحصل لكل الناس حتى الكافر.

لكنّ الذين استطاعوا الحصول على هذه الدرّة الثمينة كما حصلوا عليها عند الشدائد فهمْ يُدركون الله ويعرفونه دائماً.

﴿في بيوتٍ أذِنَ اللّهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذكَرَ فيها آسمُهُ يُسَبّحُ لَهُ فيها بالغُدّوِ والآصالِ﴾[2].

يقول القرآن إن بعض الناس قد آرتقُوا إلى درجات عالية، وهؤلاء يُدْعَون

---

(١) سورة العنكبوت/ الآية ٦٥.

(٢) سورة النور/ الآية ٣٦.

في الملكوت (مؤمنين). فمن هُمْ؟ هم الذين يرونَ الله دائماً ويدركونهُ.

﴿رَجالٌ لا تُلهِيهِمْ تجارةٌ ولا بَيْعٌ عنْ ذِكْرِ اللّهِ﴾[1].

فلو كان الإنسان كذلك فلا يُعْقَلُ صدور الذنبِ منهُ إلاّ أنْ يَغفلَ. وعند ذلك يُعقّبُ هذه الغفلة بالتوبة والإنابة والتضرّع والبكاء.

يكتب الغزالي أن تاجراً أرسل سفينة فيها حنطة إلى مدينة الكوفة وكتبَ لصاحبِهِ أن يبيع الحنطة فور وصولها لأني سمعتُ رسول الله (ص) قال لا يجوز الاحتكار.

يقول الغزالي وصلت الحنطة يوم الاثنين. كان صاحبه إنساناً محسناً فكّر أن يبيع الحنطة يوم الجمعة لأن نقصها سيكون كثيراً. فاحتفظ بالحنطة من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة، فحصلَ على ما احتسبهُ وانتفع سبعة آلاف درهم. وبفرحٍ وسرور كتب لصاحبه أن الحنطة وصلت يوم الاثنين وقد بعتها يوم الجمعة وكان الفرقُ سبعة آلاف درهمٍ وقد أرسلتها إليك.

وعندما وصلت الرسالةُ للتاجر الذي رسخ في قلبه الإيمانُ الذي لا يزعزعه أيّ شيء، تألّم وكتب لصاحبِهِ بدلاً من الشكرِ: أيّها المجرم! أيّها الخائن! تريد أن تدخل النار أنا وأنت بسبب المال والدنيا؟! لماذا احتكرتَ طعام الناس ثلاثة أيّامٍ؟ لقد أرجعتُ السبعة آلاف درهم، فبمجرد وصولها إليك تصدّق بها علىٰ فقراءِ الكوفة، لعلّ اللّهُ يعفو عن ذنبنا.

ويكتب الغزالي حكاية أخرىٰ هي أنّ تاجرَ السُكّرِ كتب لصاحبِهِ، ليس عندنا سكرٌ هذا العام لأنّ البردَ أهلك قصب السكّر، فإنّ أمكنكَ أن تشتري السكّر لأنّه قد ترقّىٰ سعره. فاشترىٰ مقداراً كبيراً، لكنّه التفتَ فجأة إلى غفلتهِ. وبدأ الإيمان الراسخ في القلب ضرباتهُ وسوطَهُ عليهِ بسبب ما فعل.

إنه لم ينمْ حتى أذان الصبح. وفي ذلك الوقت ذهب إلى بيوت

---

(١) سورة النور/ الآية ٣٧.

المُشترين وقال: أنا غششتك وخدعتكَ، فإنْ سعرَ السكّر أكثرُ من هذا وأنتَ لم تعلمْ. فأبطلْ هذه المعاملة وأرِحْني. وأعاد كلَّ السكّر إلى أهلِهِ.

يضيف الغزالي. وجد التجار أن فعلهُ حسنٌ جداً، فقالوا: إننا راضون بهذه المعاملة. فقد قَبِلَ ابتداءً، لكنّه عندما أراد أن ينام بدأت ضربات الوجدان، فقال: أيها النفس! لقد خدعتِ الناس أخيراً، وحصلت على مالٍ بغير حقٍّ. إنهم راضونَ ولكن، ألَمْ تأخذي بغير حق؟ فلم تغمض عيناهُ حتى الصباح وذهب مرّة ثانية إلى محلاتَ المشترين وقال أقسم عليكم بالله أن تُريحوني وتبطلوا هذه المعاملة لأستطيع النوم. وبالتالي فسخ المعاملة وأعادَ السكّر.

﴿ألهاكُمُ التكاثر حتى زُرتم المقابرَ﴾.

لا يحصل الإيمان القلبي منْ أسفار الملاّصدرا. بل يلزمه ارتباط وثيق بالله تعالى.

عين اليقين:

تسمىٰ المرتبة الثانية للإيمان عينُ اليقينِ، في المرتبة الأولىٰ للإيمان يرىٰ النار من بعيدٍ، لكنه في هذه المرتبة يكون مجاوراً للنار ويشعر بحرارتها، أي يتمُّ مقام التخلية والتحلية بالتدريج.

﴿فلمّا آتاها نوديَ يا مُوسىٰ إني أنا ربُّكَ فاخلَعْ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بِالوادِ المُقدَّسِ طُوىً﴾[1].

في هذه الحالة استطاع الإنسان أن يقضي على الصفات الرذيلة ويلتبس بالصفات الإنسانية وبعبارة أخرى حصلتْ له ملكة العدالة. فعند ذلك يسطع في قلبه نورُ اللَّهِ ويكون دليلَه وهاديَهُ، وبعبارة القرآن وعلماء الأخلاق حصل له مقام التحلية وعين اليقين.

﴿ويَجعلْ لكُمْ نوراً تَمشُونَ به ويغفرْ لكُمْ﴾[2].

---

(١) سورة طه/ الآية ١١ ، ١٢.

(٢) سورة الحديد/ الآية ٢٨.

﴿أوَ مَنْ كانَ ميتاً فأحْيَيْناهُ وجَعَلْنا لَهُ نوراً يَمْشي بِهِ في النّاس كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلمَاتِ ليسَ بخارجٍ مِنها﴾[1].

اقرأوا القرآن وتدبّروا فيه، وانظروا هل يستوي الذي له نور يمشي به في الناس والذي هو في الظلمات؟ كلاّ لا يستوون. لذا يقول القرآن إنّ هذا الإنسان يمشي بنور الله فلا همٌّ له ولا خوف ولا اضطراب... وانّه يميّز الحقّ من الباطل فلا يوجد في نفسهِ حبُّ الذات وحب الزوجة والأطفال.

حق اليقين:

المرتبة الثالثة هي اقتراب الإنسان ووصوله إلى حق اليقين بواسطة الارتباط بالله وبالولاية. حق اليقين هو كوجود الإنسان في النار وهي وصول صاحب المنزل إلى بيتهِ. قلبُ المؤمنِ عرشُ الرحمانِ فلا شيء يحكم قلبه سوى الله تعالى وإن ﴿اللّهُ وليّ الذين آمنوا﴾[2] وعندما يحكم الله على قلبه فلا يرى سواهُ، فلا يرى نفسه وذاته، فكيف بالمال والحصول عليه عن طريق الحرام، وكيف بالرئاسة والتفاخر بها؟

﴿ومنَ الناسِ مَنْ يتّخذُ من دونِ اللّهِ أنْداداً يُحبّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ والّذينَ آمَنوا أشدُّ حُبّاً للّهِ﴾[3].

ترتبط قلوبُ بعض الناس بأشياء كثيرة، فقد يرتبط القلب بالمال وحبّ التجارة، وحب الزّوجة والأطفال و...، ففي قلوبهم حبّ كل شيء إلاحبّ اللّهِ! فقد أخرج صاحب المنزل وأقامَ فيه الغاصبين. يقول القرآن، إنّ هذه عبادة للأوثان. وفي هذا القلب أوثان كثيرة. لكن العاشق لله فإنّ الله حاكم على قلبه، فلو أوصلَ العاشق عشقه إلى المرتبة الثالثة والرابعة فلن يرى في العالم سوى معشوقَهُ وكما يقول الشاعر: أنت في لساني وعيني وقلبي فمتى تغيب؟ الغائب

---

(١) سورة الأنعام/ الآية ١٢٢.

(٢) سورة البقرة/ الآية ٢٥٧.

(٣) سورة البقرة/ الآية ٤.١٦٥

هو الذي لا يكون في العين واللسان والقلب.

﴿وما تِلْكَ بِيَمينِكَ يا موسى؟ قال: هيَ عصايَ أتوكَّؤا عليها وأَهُشُّ بها علىٰ غنمي وليَ فيها مآربُ أخرىٰ﴾[1].

تقول هذه الآية لو آمتلأ القلب بحب الله، فيكون الدعاء وتلاوة القرآن أفضل لذّة للإنسان. فما معنى القرآن؟ يقول قائد الثورة العظيم، القرآن هو الكلام النازل، والدعاء هو الكلام الصاعد. أي أن القرآن كلامُ الله مع العبد، والدعاء كلامُ العاشق مع المعشوق، وكلام العبد مع المولىٰ. إنّ أسمىٰ لذةٍ في هذا العالم هي خلوة العاشق بالمعشوق، وأعلىٰ منها دعوة المعشوق للعاشق. وأفضل منها انتباهُ المعشوق لكلام العاشق وأرفع من هذا هو تكلّم المعشوق وعطفهِ على العاشق، وكلّ هذه توجد في «صميم الليل».

﴿تتجافىٰ جُنوبُهُمْ عَنِ المضَاجِعِ يَدعُونَ ربَّهُمْ خَوْفاً وطَمَعاً وَمِمّا رَزَقناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[2].

أي هناك عشاقٌ حكمت قلوبَهُمْ صفاتُ الجلالِ والجمالِ. خوفاً وطمعاً.

يقول الإمام الصادق (ع): ركعتان في جوفِ الليل أحبُّ إلي من الدُّنيا وما فيها. فلماذا؟ لانّهُ عاشقٌ وقد حكم الله على قلبهِ، وانّهُ وجد ضالّتهُ في جوف الليل. ويقول القرآن: هنيئاً لهُ.

توجد هذه المراتب الثلاث في سورة النمل عندما يذكر قصة موسىٰ (ع):

﴿إذْ قالَ موسىٰ لأهلِهِ إِنـي آنَسْتُ ناراً﴾[3].

وهذه هي مرتبة علم اليقين لأنه يقول إني رأيتُ ناراً من بعيد.

﴿فلمّا جاءَها نودِيَ أن بُورِكَ مَنْ في النّارِ ومَنْ حَوْلَها﴾[4].

---

(١) سورة طه/ الآية ١٧ و١٨.

(٢) سورة السجدة/ الآية ١٦.

(٣) و (٤) سورة النمل/ الآية ٧ و٨.

فيبارك الله تعالى لمنْ وصل إلى مرحلة عين اليقين وحقّ اليقين.

فما معنى العداوة بعد ذلك؟ على الإنسان أنْ يعادي الذي لم يعشق اللّهَ. ينقل عن المجنون أنّهُ أمسك بكلبٍ. قيل هل جننت؟ قال: إنّ هذا الكلب السعيد حارسُ شارعِ ليلىٰ.

فلو وصلنا إلى هذا المقام حقيقة لتركنا الغش والخداع والغيبة والتهمة، لأنّه عندما يحب اللّه يحبُّ عبادَهُ أيضاً.

كيف يحصل الإيمان القلبي

إذا كانت جذور الإيمان ثابتة في القلب يستطيع الإنسان تنظيم غرائزه عند طغيانها، وهذا الإيمان هو العامل الوحيد لذلك. لا شيء ينفع الإنسان عند طغيان الغرائز سوى الإيمان القلبي، الإيمان الراسخ في القلب والذي تسمىٰ مرتبته الأولى (علم اليقين) وهذه المرتبة تُلزِمُهُ وتقيّد غرائزِهِ. ويقول القرآن أن المرحلة القريبة من مرحلة علم اليقين (الاطمئنان) والتي يسميها (المظنّة)، هي مانعة للغرائز أيضاً فكيف بعين اليقين وحق اليقين التي يحكم الله فيها على القلب وهنيئاً لِمن وصل إلى هذه المرتبة.

﴿نوديَ أنّ بورِكَ مَنْ في النّارِ ومَنْ حَوْلَها﴾[1].

﴿فمَنْ كانَ يَرْجُوا لقاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَل عَملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادَةِ ربّهِ أحداً﴾[2].

الإيمان القلبي والعبادة:

المرتبة الثانية والثالثة هي عندما يحصل اللقاء ويذكر القرآن كلمة «اللقاء» أكثر من عشرين مرّةً. فمن أين يحصل هذا المقام؟ فهل يحصل عن طريق البرهان كالإيمان العقلي؟ كلاّ. لو أراد الإنسان الحصول على الاعتقاد القلبي عليه أن يتبحّر في فن الفلسفة والعرفان وعلم الكلام لتقوىٰ عقائدهُ العقلية

---

(١) سورة النمل/ الآية ٨.

(٢) سورة الكهف/ الآية ١١٠.

ويحصل على الإيمان العقلي، ولكن هل الإيمان القلبي كذلك؟ كلاّ. يقول القرآن بشكلٍ إجمالي يحصل الايمان القلبي عن طريق العبادة.

﴿وآعبُدْ ربَّكَ حتىٰ يَأْتِيَكَ اليقين﴾[1].

فيمكن الوصول إلى الإيمان القلبي عن طريقِ الارتباط بالله والعبادة.

﴿وما خلقْتُ الجنَّ والأنسَ إلاّ ليعبُدُونَ﴾[2].

يقول الإمام الصادق (ع) «أي ليعرفون» أي مَن يريدُ المعرفة لا العلم فعليه بالعبادة. فالعلم هو إثبات الله عن طريق برهان النظام. فيمكن الوصول إلى المعرفة بالعبادة، فيصل الإنسان إلى أي مرحلة شاء بواسطتها. العبادة سبيل اللقاء. فَمَنْ كانَ يرجو لقاءَ ربّهِ فَلْيَعْمَلْ عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادةِ ربّهِ أحداً. فلو أردنا الحصول على الإيمان القلبي وهو هدف الخلقة فإننا نحتاج إلى ثلاثة أمور نصلُ بها إلى أيّة مرحلةٍ شئنا ولا فرق في ذلك بين العالم والأُمّي والتاجر والفلاّح والمدني والقروي، والرجل والمرأة.

﴿مَنْ عملَ صالحاً مِنْ ذكرٍ أو أنثىٰ وَهُوَ مؤمِنٌ فلنحيينّه حَياةً طيّبةً ولَنجزِيَنَّهُمْ أجْرَهُمْ أحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

العوامل الثلاثة لحصول الإيمان القلبي:

١ ـ التقيّد بظواهر الشرع.

٢ ـ اجتناب الذنب.

٣ ـ أداء المستحبّات.

التقيد بظواهر الشرع

١ ـ لا يصل الإنسان إلى أيّة مرحلة بعدم الالتزام بظواهر الشرع، ويتبع هذا الالتزام اللقاء.

---

(١) سورة الحجر/ الآية ٩٩.

(٢) سورة الذاريات/ الآية ٥٦.

(٣) سورة النحل/ الآية ٤.٩٧

﴿فمن كانَ يرجو لقاءَ ربّهِ فليعملْ عملاً صالحاً﴾(١).

ومن جملة الالتزام بظواهر الشرع هو الاهتمام بالواجبات وإطاعة القانون الإسلامي وأوامر الله والنبي (ص)، والإمام (ع)، الاهتمام بكل الواجبات كالصلاة والصوم وحقوق الزوج والزوجة وأداء الوظائف الملقاة على عاتق الإنسان. فالإنسان الذي لا يعرف وظائفه وواجباته ليس له إيمان قلبي. ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ ﴿واعبُدْ ربَّكَ حتى يأتيَكَ اليقين﴾.

ولا تنحصر العبادة بالصلاة، رغم أنها أمرٌ مهمّ، وقد أوصىٰ الله بها كثيراً ولكن لا تنحصر العبادة بها بل يجب أن يكون الإنسان مطيعاً للمولىٰ تماماً.

ولتوضيح الأمر نذكر قصة من التاريخ. كان جويبر إنساناً فقيراً أسود اللون، كان يعيش في المسجد من فقرهِ (كان الرسول (ص) قد بنىٰ صفّة بجانب المسجد ليعيش فيها الفقراء الذين ليس لهم بيوت) رأى الرسول (ص) جويبراً يوماً وقد وضع رأسه بين رجليهِ وهو محزون. قال (ص) أتريد الزواج يا جويبر؟

قال يا رسول الله! مَنْ يزوّجني ابنتهُ؟!

قال: انهض واذهب إلى بيت زياد بن الزبير وقل له: إن الرسول قال زوجني ابنتكَ فاطمة.

مَن هو زياد بن الزبير؟ هو أكبر متموّل وذا شخصية ونفوذ في المدينة. ومَن هي فاطمة؟ فتاة ذات شخصية رفيعة وفاهمة، اضافة إلى أنها جميلة وذات وقارٍ.

ذهب جويبر وطرق الباب متردداً، فجاءه زياد، فقال له جويبر إن النبي قال زوجني ابنتكَ فاطمة. قال له اذهب وسآتي إلى الرسول بنفسي. سمعت ابنتهُ وسألت والدها عن الحدث.

---

(١) سورة الكهف/ الآية ١١٠.

قال: جاء جويبر، الرجل الأسود لخطبتكِ ويقول إنّ هذا ما قاله الرسول (ص).

قالت البنتُ: ما كان جوابكَ؟

قال زياد: قلتُ لهُ سأذهب إلى الرسول الأكرم (ص) بنفسي.

قالت البنت: لو أنّ الرسول (ص) قال ذلك، فإنّ جوابك هذا إهانة وجسارة عليه (ص).

قال زياد: ماذا أفعلْ؟

قالت: اذهب وأرْجِعْهُ إلى هنا وليجلسْ أمام الباب. وآذهب أنت إلى الرسول (ص) وانظر ماذا قال؟

ففعل زياد كذلك، وسأل النبي عن الأمر. قال النبي (ص): نعم أنا قلتُ زوّج ابنتك فاطمة جويبراً فعاد زياد إلى ابنتهِ وقال: هذا ما قاله الرسول. فقالت البنتُ يجب تنفيذ ما قاله الرسول وإطاعة أمرهِ. فاشترى له زياد بيتاً وأعدّ له حفلاً وعرساً وزوّجهُ ابنتهُ. دخل جويبر غرفة العروس لكنّه لم يقترب من الفتاة وهو الذي كان في الصفّة قبل ساعاتٍ بثوبٍ عتيق والآن يملك بيتاً وله زوجة وحياة طيّبة، وانشغل بالعبادة حتى الصباح. فرحت النساء وقلن كأنَّ جويبراً لا يريد اللذة فانتهىٰ الأمر. فجاؤوا إلى الرسول وقالوا: يا رسول الله! إنه لا يقتربُ من البنت فهو لا يريد زوجة.

فدعاهُ الرسول وقال: يا جويبر! يقولون إنك لا تريد زوجة أليس كذلك؟

قال: كلا يا رسول الله ليس كذلك.

قال: فلماذا تفعل هكذا؟

قال: يا رسول الله عندما دخلتُ الغرفة، رأيتُ نِعَمَ اللّهِ، وعليَّ شكرُ هذه النعم. لذا قررْتُ عبادة اللّهِ ثلاث ليالٍ. فانتهتْ الليلة الثالثة وهذه الليلة هي ليلة العرسِ.

الوصول إلى الإيمان القلبي كزياد بن الزبير والتسامح كفاطمة ابنتهُ، وإطاعةُ أوامر اللّهِ كجويبر كلّها تحتاج إلى الطاعة. وقيل إن هؤلاء الثلاثة كان لهم ميزة في ثلاثة أمور. أحدها من حيث الشخصية، فقد قام زياد بن الزبير في ذلك الوقت بأمرٍ مهم جداً. فقد تميّز من بين العرب بتزويج ابنتهِ إلى جويبر الأسود في حين كان العرب كما يذكرهم القرآن والروايات والتاريخ لم يحنِ أحدهم رأسهَ أبداً، فلو كان الباب قصيراً لم يكن مستعدّاً لإحناء رأسهِ والدخول منها بل يقول خربوا الباب لكي أدخل منها.

كانت فاطمة مطيعة لله بشكل تام، وملتزمة بأوامر الله والنبي (ص). فعندما أرسل أبوها جويبراً إلى النبي وقال له سآتي خلفكَ قالت لأبيها انّ ذلك إهانة لأمر الرسول (ص).

فلو جاءك رجل يخطب ابنتك فأنظر هل عنده إيمان وأخلاق أم لا؟ فإن كان ذلك فزوّجهُ. وإن خطبتَ بنتاً فانظر في دينها وأخلاقها، فإن لم يكن لها إيمان ولا خُلُق فاتركها، فالإسلام يريد العفة. والإيمان القلبي يحصل بالالتزام بأوامر الله ولا ينحصر في الذهاب إلى مكة والحج والزكاة يجب الحج وإعطاء الزكاة حتماً فإن لم تعطها فإنك كافر ومشرك. يقول تعالى: **﴿وويلٌ للمشركِينَ الذينَ لا يؤتونَ الزكاةَ وهُمْ بالآخرةِ هُمْ كافرون﴾**[1].

﴿أرأيتَ الذي يكذّبُ بالدّين﴾[2] ثم يقول:

﴿فويلٌ للمصلّين الَّذينَ هُمْ عَنْ صلاتِهِمْ ساهُونَ﴾[3].

اجتناب الذنب:

٢ ـ الالتزام بالواجبات شرط أساسي، والأهمُّ منه اجتناب الذنوب، إحدى مراحل الالتزام بالواجبات هي الالتزام بظواهر الدين والأهمّ منها هو اجتناب الذنوب. إن الذنب يحرق شجرة الإيمان وإن كانت راسخة في القلب، فلو

(١) سورة فصّلت/ الآية ٦ و٧.

(٢) و(٣) سورة الماعون/ الآية ١ و٤ و٥.

تكرر الذنب فعند ذلك يقسو القلب ويقول القرآن: فويلٌ للقاسية قلُوبهم.

﴿ثم كانَ عاقبةُ الذينَ أساؤا السّوأى أنّ كذّبوا بآياتِ اللّهِ﴾[1].

أداء المستحبات:

٣ ـ الأمر الثالث للحصول على الإيمان القلبي هو الاهتمام بالمستحبات (بحيث لا يترك الإنسان أعماله الضرورية لأجلها). ويؤديها بقدر ما يرسّخ بها شجرة الإيمان في قلبهِ. ومن الأمور المستحبة المهمة تلاوة القرآن، ومناجاة الله والتضرع إليه، وصلاة الليل، وخدمة الناس (ولعلّها أهم المستحبات). برأي الإسلام إن خدمة الآخرين من الواجبات، فلعلّ الإنسان يقوي في قلبه الإيمان خلال ليلة واحدة أو يقلع جذور الايمان من قلبه في ليلة واحدة أيضاً. فما أكثر الشباب الذين وصلوا إلى مقام رفيع بسبب الالتزام بظواهر الدين وخدمة الآخرين والإيثار والنصيحة وغيرها.

المرحوم الآخوند الملا حسين قلي الهمداني من تلامذة الشيخ الأنصاري، كان له تلامذة عظماء. وإن الأستاذ المرحوم العلاّمة الطباطبائي رحمهُ الله تلميذ المرحوم القاضي وهذا تلميذ المرحوم الملا حسين قلي الهمداني. وتُنقَلُ عنه أمور كثيرة.

ذهب إلى كربلاء يوماً وتأخر أحد تلامذته لانشغاله في عملٍ ما. فلم يرغب أن يترك أستاذهُ، فقرّر أن يتبعهُ في اليوم الثاني ورأى أنّه لو سافر عن طريق النهر يمكنه الوصول إلى كربلاء غداً. فركب الزورق وذهب إلى كربلاء عن طريق نهر الفرات. كانت أيامُ زيارةٍ وفي منتصف الطريق امتلأ الزورق بالمسافرين. جلس بجانبه هذا التلميذ والذي اسمه سيّد سعيد رجلٌ وكان متعباً فاتكأ على السيد ونام وكان ذو رائحة نتنة.

فقرّر سيد سعيد أن يوقظه، لكنه لم يرغب في ذلك، وقال إنّه مسلم وزائرٌ

(١) سورة الروم/ الآية ١٠.

للإمام الحسين (ع). وأراد أن يناديه مرّة ثانية لكنَّ إيمانه لم يأذن له. وهكذا في المرة الثالثة. وبالتالي بقي على هذه الحال حتى الصباح. أما المرحوم الآخوند فقد رآه تلامذته الذين سافروا معه مسبقاً، يكرر قوله: بارك الله فيك يا سيّد سعيد، ولم يفهموا ذلك فما معنى «بارك الله فيك يا سيد سعيد»؟

وعند الصباح فتح الآخوند الباب وسلّم عليه وقال له: بارك الله فيك يا سيّد سعيد. فقد فعلت خيرَ خمسين سنة في ليلة واحدة.

فأرجو منكم أن تخدموا الآخرين ما بوسعكم وبالأخصّ خدمة الناس الفقراء والقرويين والغُرباء.

التوسل بأهل البيت (ع):

من الأمور المرتبطة بالالتزام بظواهر الدين التوسّل بأهل البيت (ع). فلا يتوقّف الانسان بدون التوسّل بهم، ولا يصل إلى درجات الإيمان الرفيعة، بل إنّ أساس الالتزام بظواهر الدين كالاهتمام بالواجبات واجتناب الذنوب وأداء المستحبات هو: التوسّل والاخلاص، فإن لم يكونا لما نفع ذلك الالتزام.

كان المرحوم العلاّمة المجلسي الأول رحمهُ الله رجلاً عظيماً وفقيهاً وعارفاً ومفسّراً، وعارفاً بروايات أهل البيت (ع). كتب مجلّداً في الفقه ويدلّ ذلك على أنّه فقيه عارف بالروايات والقرآن الكريم. وكتب في خصوص (من لا يحضرهُ الفقيه) اثني عشر مجلّداً. ويذكر قصة في ضمن شرح الزيارة الجامعة (ينقل زيارة الجامعة المرحوم الصدوق في «من لا يحضره الفقيه»). يقول: تشرّفتُ بالذهاب إلى النجف. فلم أجد في نفسي ارتباطاً بعلي (ع) ولو أردتُ الذهاب إلى حرمهِ فعلي تقوية هذا الارتباط. هنيئاً لهذه العقول والإدراك فليست هذه عقول وعلوم بل هي إيمان عاطفي رسخ في القلب.

ثم يقول: كنت أذهب إلى مقام القائم (عج) في النهار. وهو مكان يختص بالإمام المهدي (عج) في وادي السلام. يقول كنتُ أعبدُ هناك نهاراً وأصومُ وفي الليل لأنني أخافُ هناك كنت أذهب إلى شرفة الإمام علي (ع)

وأعبد هناك ولم أدخل الحرم. استمر الأمر عدّة أيام، فكَشِفَتْ لي الأمور في إحدى الليالي. لا يرتبط عالم الانكشاف بنا، بل يمكن ذلك لأفرادٍ خلطوا العلم بالعمل كالمجلسي والملاّ صدرا، ولا يحصل عالم الانكشاف لغير المتبحر والمتخصص في المعارف الإسلامية. فإن الملاّ صدرا يقول بعد إخباره دائماً: هذا حصل لنا عقيب الكشف والخلوات وأقمنا عليه البرهان. ولو ادّعىٰ الجاهلُ الكشف فذلك خيال ووهم: فلا تتوهموا ولا تنخدعوا، ولكن يمكن ادعاء الكشف للعلاّمة المجلسي رحمه الله لذا قال: حصل لي عالم الكشف أن رأيتُ أني في سامراء (سر مَن رأىٰ) وكان هناك الإمام المهدي (عج) فرأيت نورهُ الساطع. فقرأتُ له زيارة الجامعة كلّها، فقال الإمام: اقتربْ، فخفتُ وخشيتُ من هيبتهِ. ثم اقتربتُ منه فوضع يدهُ على كتفي وقال: نعمَ الزيّارة هذه.

يقول انتهى عالم الكشف فسمعتُ أنهُ يقال لي: تعالى إلى سرّ من رأى فذهبت ماشياً على قدمي واغتسلتُ ودخلتُ إلى حرم أمير المؤمنين (ع) وهنا مسّ وليس كشف، دخلت الحرم فرأيتُ الإمام صاحب الزمان جالساً عند قبر أبيه وجدّهِ. ومن بعيد كنتُ أشيرُ بيدي فرحاً واقرأ الزيارة الجامعة: السلامُ عليكم يا أهل بيت النبوّة وموضع الرسالةِ... وعندما انتهت الزيارة قال الإمام (عج) اقتربْ. لم أستطع الحركة لهيبته كنت أذهب وأعود. قال: تعال. فذهبت قليلاً تدريجاً وصلتُ إليه فوضع يدهُ على كتفي بلطف وقال: نعمَ الزيارة هذه. قلتُ: هذه الزيارة لجدّكم (وأشَرْتُ إلى قبر الإمام علي النقي (ع)، قال: نعم. فعندما كان المجلسي الأول الرجل الذي يجب أن يقال عنه (بحر من كلّ شيء) عندما كان يصل إلى هذه الزيارة يقول: أفضل زيارة من بين الزيارات، بسبب عدم وجود زيارة كهذه الزيارة صريحة من حيث المضمون والدلالة.

لذا كان قائد الثورة يقول: إن المضمون يدلّ على السند وإنْ لم يكن سندها صحيحاً فالمضمون يدل على أنها للإمام، وأن الإمام قد أمضاها وأقربها بقوله: نعمَ الزيارة هذهِ. فأرجوا من الجميع أن يقرأوا هذه الزيارة كلّ صباح، فيجب التوسّل في أيّة حال. فلا فائدة من الإسلام بلا الولاية وبلا الإمامة.

﴿يا أيُّها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لـم تَفْعلْ فما بلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1].

جاء الإمام الرضا (ع) إلى نيشابور واجتمع الناس جميعاً فأخرج الإمام رأسه من الهودج وقال ورد عن أبي عن أبيه وعنه عن الله تعالى قال:

كلمة لا إله إلاّ الله حصني فمن دخل حصني أمِنَ من عذابي.

فلو رسخت كلمة لا إله إلاّ الله في القلب لا يمكن للشيطان أن يسيطر عليه.

﴿إنّـما سلطانه علـى الذّين يتولّونَهُ﴾[2].

ثم أدخلَ رأسهُ في الهودج وسكت قليلاً ثم أخرج رأسهُ مرّة ثانية وقال: بشرطها وشروطها وأنا من شروطها وقال ولاية علي ابن أبي طالب حصني فمنَ دخل حصني أمِنَ منْ عذابي.

الإيـمان القلبـي والإخلاص:

الالتزام بظواهر الشرع كالاهتمام بالواجبات واجتناب الذنوب وأداء المستحبات وأساس كلها التوسل بأهل البيت (ع) والخلوص. ويقول القرآن:

﴿صِبْغَةَ اللّهِ ومَنْ أحسنُ مِنَ اللّهِ صبغةً﴾[3].

يوجد في القرآن أكثر من ثلاثمائة آية عن أمير المؤمنين (ع) وأفضلها هي:

﴿إنّـما ولـيُّكُمُ اللّهُ ورسُولُهُ والّذِينَ آمَنوا والّذينَ يقـيـمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزّكاةَ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة/ الآية ٦٧.

(٢) سورة النحل/ الآية ١٠٠.

(٣) سورة البقرة/ الآية ١٣٨.

(٤) سورة المائدة/ الآية ٥٥.

إنما وليكم الله ثم الرسول ثم الذي يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة والذي يتصدّق بخاتمهِ في الركوع، ومن المسلّم به عند الشيعة والسنّة أن الذي تصدّق بخاتمهِ هو الإمام علي (ع). وهذه الآية تتحدث عن الإمام علي (ع).

لماذا نزلت آية الولاية هذه؟ بسبب خاتم؟ فما قيمة ذلك الخاتم؟ كان عاديّاً جداً، لم يكن له ثمن غالٍ، فالخاتم الذي كان الإمام علي (ع) يضعه في إصبعه كان رخيص الثمن كالملابس التي كان يرتديها. ولكن سبب ذلك هو الخلوص. فقد أصابه إخلاص الإمام (ع) فآرتفعت قيمته ولن تساويه الدنيا والآخرة.

يقول أستاذنا العظيم العلامة الطباطبائي رحمهُ الله عن الاخلاص: لو صُبغَ العملُ بصبغة الإخلاص ترتفع قيمته، فلا يعرف بعد ذلك سوى الله. فلعلّ الجنّة قليلة في مقابل ذلك الفعل الخالص. يا ثار الله وآبن ثارهِ. فمهما كان الفعلُ مهما إن لم يكن فيه إخلاص فهو أضلُّ من الضلال.

فاجعلوا أعمالكم كلها وتجارتكم جهاداً في سبيل الله. الكادّ على عيالهِ كالمجاهد في سبيل الله.

ويقول الإسلام: جهادُ المرأةِ حسنُ التبعّل.

وجاء في رواية أنّ المرأة التي تحسن التبعّل وتعمل في البيت وتطبخ وتتعب كأنها سابحة في دمها في سبيل الله.

في يوم القيامة بعد الأنبياء والأوصياء يأتي دور العلماء والشهداء. يكتب الشهيد رحمهُ الله أنّهُ يؤتىٰ يوم القيامة بالعالم فيقال له: ما كنتَ تفعلُ في الدنيا؟

يقول: كنتُ أقول قال الباقر وقال الصادق. لله وتقويّة الدين.

فيُقال لهُ: قُلتَ قال الباقر وقال الصادق، ولكن ليقال لك: «أنت العالم!» فيُقال ارموهُ في جهنّم على ناصيتِهِ. ويؤتىٰ بآخر فيُسأل عن عمله في الدنيا؟

يقول ذهبتُ إلى الجبهة وإلى الحرب فحوصرنا في الصف الأول فقاتلتُ حتى قُتلْتُ فيُقال له. حاربتَ لا في سبيل الله بل ليقال عنك شجاع! فيرمىٰ في جهنم على ناصيتِهِ أيضاً. فالإخلاص مهم في كلّ فعل.

تنمية الإيمان في القلب

التوبة عن الذنب:

لو أردنا الحصول على الإيمان القلبي علينا تحصيله من طرقه الثلاثة. فلا يحتاج الإيمان القلبي إلى برهان كالأيمان العقلي. تحدثنا عن الالتزام بظواهر الشرع وبالأخص اجتناب الذنب فالذنب يؤثر على حياتكم وآخرتكم وعلى سعادة أولادكم وشقائهم. فالذنب وإن كان صغيراً فهو كبيرٌ في هلاك الإنسان. فلا تجعلوا للذنب سبيلاً إلى أنفسكم، وإِنْ أذنَبْتُم فتوبوا إلى الله. وإنْ أمكنكم أن تصلّوا ركعتين بعد ارتكابكم الذنب (كما أمرَ الإمام الصادق (ع)). قال الإمام الصادق (ع) لرجلٍ كان يستمع الغناء، قُمْ واغتسل وصلِّ وتُبْ بعد الصلاة. فالويل لك إنْ كنت مُتَّ على تلك الحالة.

فإنْ لم تغتسلوا غسل التوبة، فصلّوا صلاة التوبة. فلو تاب الإنسان فإن الله يغفر الذنب مهما كان كبيراً. والتوبة أول أمرٍ يثبّت الإيمان القلبي عند الإنسان.

الصبر عند المصائب:

الأمر الثاني اللازم لحصول الإيمان القلبي هو الصبر عند المصائب. ففي دنيانا أمواج متلاطمة كثيرة، فلا يمكن لمن في البحر أن لا يرىٰ أمواجهُ.

روي عن أمير المؤمنين (ع) وعن الصادق (ع) والرسول (ص): الدُّنيا بحرٌ عميقٌ قد غَرَقَ فيها خلقٌ كثير. ويسمّي القرآن المصائب والتحوّلات وغيرها امتحاناً.

يذكر القرآن أن الامتحان على قسمين، فيستعمل أحياناً في معنى أنّ الإنسان يُمتحَنَ في هذه الدُّنيا. ليعلم ماذا يفعل ولا يقل يوم القيامة إني كنت صالحاً.

﴿ليميزَ اللّهُ الخبيثَ منَ الطّيّبِ ويجعلَ الخبيثَ بعضَهُ علىٰ بعضٍ﴾[1].

ويذكر الامتحان في أول سورة العنكبوت فيقول:

﴿أحسب النّاسُ أنْ يُترَكوا أنْ يقولوا آمَنّا وهُم لا يُفْتَنونَ ولقدْ فَتنّا الّذيْنَ من قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الّذين صَدَقوا وَلَيعْلَمَنَّ الكاذبينَ﴾[2].

والقسم الآخر للامتحان المذكور في القرآن هو أن المصائب تصيب الإنسان لتبنيه وتربّيه. يستفيد الإنسان من البلاء أكثر من النعمة لذا قيل: إن النعمة من ألطاف الله الجليّة، والبلاء من ألطافهِ الخفيّة. إن البلاء عند العظماء يُعدُّ من النعم الكبيرة ويدعونه اللطف الخفي.

الألطاف الخفية:

لعلّ الشيوخ الكبار شاهدوا المرحوم الميرزا جواد الملكي. كانت لأهل قم نعمٌ كثيرة، كمؤسس الحوزة العلمية، المرحوم الشيخ عبد الكريم الحائري والميرزا الملكي الذي حضر درسهُ آباءُ هؤلاء التجّار، وكانت له كرامات وخَرَّجَ تلامذة عظماء. ومن تلامذته قائد الثورة الإسلامية. يقال كان له ولدٌ ذو خمس وعشرين سنة، وقع في عيد الغدير في الحوض وغرق. وكان والدهُ في الدرس. فنادوهُ، فجاء ورأى جثة ابنهِ في الحوض. فقال اتركوا جنازة ولدي، ولا تجعلوا عيد الناسِ عزاءً. ثم عاد إلى الدرس وجلس بطمأنينة. فسأله العلماءُ عن الحدث.

قال لقد أعطانا اللّهُ عيداً، لكن النساء لا تلتفتُ إلى ذلك!

---

(١) سورة الأنفال/الآية ٣٧.

(٢) سورة العنكبوت/ آية ٢ ، ٣.

أو ما يُقال عن قائد الثورة الإسلامية، عندما وصله خبر موت ابنهِ مصطفى، قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعونَ. إنّ موت مصطفىٰ من ألطاف الله الخفية.

فالبلاء من الألطاف الإلهية الخفيّة وأفضل من النعمة لـمَنْ يريد أن يبني نفسهُ ويُصلحها، ويثبّت جذور الإيمان القلبي في نفسهِ. يقول القرآن: إن نبتلِكم ونمتحنكم، وليس كالامتحان الأول، فمثلاً ليس للصخرة قيمة كيفيّة، فلو أُريدَ الحصول على الذهب من صخوره فيجب وضعها في الأفران الحارّة التي تصل إلى عدّة آلاف درجة حرارية. لتزول الأوساخ وكل كدورة وحديد ونحاس فيه. فقد جاء الإنسان إلى هذه الدنيا، وهي فرنٌ كبير ليصبح خالصاً من كل ما يَكدّرهُ وليكون مصداق الآية الشريفة:

﴿يا أيّتها النّفْسُ المطمئنّةُ آرجعي إلى رَبّكِ راضيةً مرضيةً﴾[1].

لذا لو سُئِلْتُم: ما هو الهدف من خلقة الموجودات؟ يجب أن تقولوا: «الإنسان». ولو سُئلْتُمْ ما هو الهدف من خلقة الإنسان؟ يجب القول «لقاءُ اللّهِ». خلقتُك لنفسي، ولتكونَ مصداق الآية:

﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى رَبّها ناظِرَةٌ﴾[2] فيجب أن يدخل الإنسان في المصائب، وجاء في الروايات أنّ الله لو أحبَّ عبداً ابتلاهُ. البلاءُ للأولياء، البلاء للأنبياء. ويقول القرآن:

﴿ولنبلونّكُمْ بِشيءٍ منَ الخَوفِ والجُوعِ ونقصٍ منَ الأموالِ والأنفُسِ والثّمراتِ وبَشّرِ الصَّابرِينَ الّذينَ إذا أصابَتْهُمْ مصيبةٌ قالُوا إنّا للّهِ وإنّا إليهِ راجِعُونَ﴾[3].

يقول تعالى: إننا نمتحنكم حتماً. بأيّ شيء؟ بالخوف، والحرب، والنقص، وبأنفسكم وأموالكم وأولادكم، وبالخسران، وبالفقر، لنعلمَ ماذا

(١) سورة الفجر/ الآية ٢٦ و٢٧.

(٢) سورة القيامة/ الآية ٢٢ و ٢٣.

(٣) سورة البقرة/ الآية ١٥٥ و١٥٦.

تفعلون؟ لماذا؟ لتهتدوا من هنا وتبنوا أنفسكم أي أنّه يرىٰ أنّه يمكنه الحصول على الأموال عن طريق الحرام لكنّهُ لن يفعل فيبقىٰ بلا عملٍ ولا يرتكب الحرام، ويرى بإمكانه الغشُ في المعاملة والربا للحصول على المال لكنه يتركه وبالتالي فهو يصبر على البلاء. وبهذا الصبر تثبت دوحة الإيمان في القلب.

أقسام الصبر:

قُسّمَ الصبرُ في رواياتنا إلى ثلاثة أقسامٍ. الصبر على المصيبة، والصبر على المعصية، والصبر علىٰ العبادة.

الصبر علىٰ العبادة:

الصبر على العبادة هو لو كان الإنسان متعباً في أول وقت الصلاة لكنّهُ ينهض ويؤدي الصلاة، ويستعدُّ لصلاة الليل في جوفهِ، يكسرُ الثلجَ ليتوضّأ بهِ. يصوم في الأيام الحارة جداً، فهذه الأمور التي تبني «الإنسان» وتهديه تُسمىٰ الصبر على العبادة والصبر عن المعصية والصبر في المصيبة والبلاء. فهي ضرورية لمن يريد الإيمان القلبي، وذلك أمرٌ مستصعب. إنّ برهان ملاّ صدرا وبرهان الصّديقين صعبٌ جداً، لكنّ تعلُّمَهُ لمن له أسس محكمة ليس بصعب. ذكرتُ لكم برهان النظام وتحقق عملياً، لكن من الصعب جداً أنْ يرسّخَ هذا البرهانُ الإيمان في القلب. فعندما يترك الذنب ويصبرُ على المصيبة لله تعالى، فإنّهُ يتزكّىٰ ويهتدي إضافة إلى آرتفاع مصيبتهِ. فجاء الإنسان إلى هذه الدنيا لكي يتزكّىٰ.

جاء في أول سورة الإنسان:

﴿إنّا خلقنا الإنسانَ مِنْ نَطفةٍ أمشاجٍ نَبْتليهِ﴾.

وهذا الامتحان يختلف عن الامتحان الأول. أي خلقناهُ لنهديه. لأنّهُ يقول بعدها:

﴿فجعلْناهُ سميعاً بَصيراً﴾.

لهذا الأمر مراتب عديدة: ففي المرتبة الأولى تنمو شجرة الإيمان في

القلب ويشعّ فيه نور الله فيضيء قلبه ويسمّي القرآن ذلك سعة الصدر وشرح الصدر. حتى يصيرُ سميعاً بصيراً إلى أن يصل إلى مرحلة يرىٰ فيها الملك كما يقول القرآن.

﴿إنّ الذينَ قالوا ربُّنا اللّهُ ثمّ استقاموا تَنزَّلُ عليهِمُ الملائِكَةُ ألاّ تخافوا ولا تَحزنوا﴾[1].

كان أستاذنا العظيم المرحوم البروجردي رحِمهُ الله يقول في دروسه الخاصة: كانَ لنا كلام، وكنّا نرىٰ أموراً ويُقالُ لنا أشياءَ كثيرة لكننا حُرِمْنا الآن من كلّ تلك الأمور.

كان أحد أساتذتنا في علم الأخلاق يقول: عندما كنا في النجف، كانوا يُنادوننا، فكانوا يقولون أحياناً: انهض أيّها السيّد، انهض، لم نرَ أحداً لكننا كنا نسمع الكلام.

وكانوا يقولون أحياناً: انهض أيّها الشيخ، وغير ذلك.

كان يقول: تعجبت لاختلاف النداء وتغيّره! فعلمتُ أخيراً أنّ أفعالي اليومية تؤثّر في أسلوب المناداة. فلو كنتُ مؤمناً صالحاً ومحسناً لكنتُ سيداً في عالم الملكوت، وإنْ كنتُ إنساناً عاطلاً، كنت كذلك في عالم الملكوت. (فللسميع البصير) مراتب أيضاً. لو كان علم اليقين، كان ضياء القلب ولو كان عين اليقين فيكون ارتباط في المنام وذلك كما ذكرنا. وإن كان حق اليقين أي المرتبة الثالثة. فعند ذلك تتيسّر رؤية المَلك. وتحصل البصيرة، فيرىٰ ببصيرته أن الذي يأكل الحرام فإنّه يأكل النار.

فُقِد ولد امرأةٍ عجوز. فذهبت إلى رجل عظيم وقالت: أريد ولدي منكَ. فقال: أينَ أجدُ ابنكِ؟

قالتْ: إن ابني أسيرٌ بيد الحاكم، وأجبرته على الذهاب إلى الحاكم.

---

(١) سورة فصّلت/ الآية ٣٠.

فذهب وقال: ضاع ولدُ العجوز فأينَ أجدهُ؟

كان وقت تناول الطعام. فقال له الحاكم تناولْ الطعام. قال: لا أريد. فهدّدهُ الحاكم. فقلبَ إناء الطعام وأخذ بيد الحاكم وعصرها. فخرج الدّم من بين أصابعهِ، فنظر إلى الحاكم وقال: إنك امتصصتَ دماء الناس، والآن خرج الدم من تحت أضفارك، تجبرني على أكل أي شيء؟!

فلو امتلأ القلب بالله تعالى، استطاع الإنسان التصرّف في عالم الملكوت.

عبدي أطعْني حتى تكن مثلي، أقول كُن فيكون، وتقول كنْ فيكون.

إن المصائب والصبر عليها والصبر عن المعصية والعبادة تجلو الإنسان وتبني روحه وتزكّيهِ.

فاحذروا المصائب التي تصيبكم، كهذه الحرب التي جلبت المصائب لنا. كنتُ أقول لو دمّروا إيران كلّها ولم يأخذوا شبابنا لكنّا نرضىٰ بذلك؛ لأنهم كانوا قدوة وذوي شأن عظيم، إنّ قراءة وصايا هؤلاء الشباب تُرعِدُ الجسم. أحياناً أتأسفُ لأنني ذهبتُ لأبلغ وأنصح هؤلاء الشباب فبلّغوني ونصحونِي، فمن أريد تبليغه بكلامي قد بلّغني بفعله وحالهِ! فإن لم تكن الحرب لم يكن هؤلاء الرجال وهذه التضحية والإيثار. فمن أين تحصل هذه الحالات؟ لو فاز الإنسان في الامتحان فإن الله يمنحه الدنيا إضافة إلى الآخرة فقد وعدهُ الله بذلك ووعده بأن يبدّله خيراً مما أخذَ منهُ.

كان لامرأة من الأنصار ولدٌ، ومات ابنها الوحيد. وعندما عاد زوجها إلى البيت استعدّت لخدمتهِ، وقالت انه يعود متعباً فلماذا أحزنهُ؟

فجاء زوجها، وعند آذان الصبح عندما أراد الصلاة قالت: لو كانت عندك أمانة، وجاء صاحبها وطلبها، فهل تتردد في إعطائها له؟

قال: لا، إن هذا قبيحٌ جداً. قالت: إذاً فإنّ ابنك ماتَ، اذهب إلى المسجد وأخبر الناسَ. فذهب إلى المسجد. كان الرسول (ص) مستعدّاً، وما إن

رآهُ (ولعلّه كان أبا أيّوب) حتىٰ قال: بارك اللّهُ ليلتكَ الماضية، ويقال انّ الله رزقها ولداً في تلك الليلة. فإن الله يثيب ثواباً أخروياً ودنيوياً، فإن الولد الذي منحهُ الله لهذين الزوجين استشهد مع جيش أمير المؤمنين في حرب صفين، وأنه كان يوصل صلاة الصبح بصلاة المغرب والعشاء فكان يدعو الله من أول الليل حتى الصباح.

قصة الخضر وموسى (ع) قصة عجيبة. يقول قائد الثورة العظيم: في هذه الآيات عرفان وفلسفة واسعة، وقد حلّتْ هذه الآيات مسألة الجبر والتفويض والقضاء والقدر، وهي مسائل صعبة في الفلسفة والعرفان. أي لو اجتمع كل الفلاسفة كالشيخ الرئيس والملاّ صدرا والطباطبائي وقائد الثورة وغيرهم لحلّ مسألة الجبر والتفويض والقضاء والقدر لما استطاعوا حلّها بشكل واضح كما ذكرت في القرآن. عندما يذكر القرآن في هذه الآيات أنّ الخضر قتل الغلام، ثم نقرأ في الروايات أنّ الله تعالى أعطاهُ ولداً خرجَ منْ نَسلهِ سبعونَ بنياً. فآستفيدوا من المصائب والابتلاءات كثيراً ورغم أنّ هذا البحث ناقص، لكنني أكتفي منه بهذا القدر.

الإيمان القلبي والأخلاق المصلحية:

الأمر الثالث المهم للإيمان القلبي والأهمّ من الأمر الأول والثاني هو التربية وتهذيب النفس والأخلاق. للتربية معنيان. ذكرنا لإلتزام الإنسان ثمانية عوامل كانت التربية أحدها. ولا فائدة في تربية الغرب، فالتربية التي يريدونها هي (التأديب). أي يكون الإنسان مؤدباً في الكلام والفعل فلا يقول ولا يؤدي فعلاً غير موزون، فيكون مؤدباً في البيت ومن حيث اللباس والمظهر ومن حيث الارتباط بالمجتمع والتعامل معه، أي يراعي الآداب والعادات الاجتماعية، وهذه هي التربية ويلزمنا التحدث طويلاً حول رأي الإسلام عن الآداب والعادات الاجتماعية.

يهتمّ الإسلام بالآداب والعادات الاجتماعية كثيراً، وإن المسلم يجب أن يكون مؤدّباً. فمن وجهة نظر الإسلام يجب على المسلم أن يعرف كيف يرتدي

الملابس حتى في البيت. ويوصي القرآن الآباء أن يكونوا مؤدبين أمام أولادهم، لأنهم كآلة التصوير يلتقطون كلّ شيء، فيتعلّمون الحسن والسوء. لذا يجب أن تكون للمسلم تربيةٌ، وليست هي التربيةِ التي نسمّيها (الأخلاق الانتفاعية) وهي تربية وأخلاق الغربيين، لو قرأتم كتاب [(كيف نكسب الأصدقاء) لديل كارنيجي] فهو كتاب جيد جداً ولعلّهُ نُشِرَ وطبع عدّة ملايين نسخة، يتضح أن الماديين يهتمون بالأخلاق الانتفاعية. فكتاب الأخلاق الانتفاعية كتاب جيد. يتحدّث عن أسلوب التعامل بين الناس وبين الزوجين وبين البائع والمشتري. ويقال لهذه «الأخلاق الانتفاعية» وقد جعل لها الإسلام قيمة كبيرة، ولكنها ليست مجدية لبحثنا.

إنكم تشاهدون العصر الحاضر وترون تربيته حتى أنهم وضعوا قانوناً لحماية الحيوانات. ولأجل إغراء الآخرين وخدعهم يكتبُ في الصحف أنّ عصفوراً اصطدم بسيارة وانكسرت رجلهُ فتألّم السائق كثيراً. فترك عملهُ وأخذ العصفور إلى الطبيب وضمّدَ رجلهُ. ويُقال لهذا قانون حماية الحيوانات، ويوجد هذا القانون في الاسلام أيضاً. وهيئة الأمم المتّحدة كتبتْ قوانينها طوال سنة كاملة، بواسطة ٦٤ دولة ومئتي رجل عاقل وعالم ومتخصص. وهذه تربية انتفاعية أيضاً. فهؤلاء الذين يمتلكون قانون حماية الحيوانات والأخلاق الانتفاعية لماذا يعاملون العصر الحاضر هكذا؟ ولماذا لا يهتمون بالمظلوم؟ ولماذا تسيل الدماء من بين أَنامل الشرق والغرب؟ ولماذا تكون نتائج علمهم صنعَ قنبلة ذريّة تُلقىٰ على اليابان فتقتل ٧٥ ألف إنسانٍ بريء؟ ولماذا تكون أوضاع أفغانستان هكذا؟ ولماذا يمتصُّ الغرب دماء الناس؟ علّة ذلك كلّهِ هو أنّ الأخلاق الانتفاعية لا يمكنها بناء الإنسان وإصلاحه. إنها حسنة لكنها لا تنفع عند طغيان الغرائز.

حصل اختلاف بين ملكٍ ووزيره، كان الأمير يقول يمكن بناء الإنسان وهدايته بالتربيةٰ وكان الوزير يقول: كلاّ لا يمكن بناءُ إنسانٍ بالتربية. استمرّ الكلام بينهما عدّة أيامٍ ولم يصلا إلى نتيجة. كان الأمير يريد أن يثبت للوزير مقولتهُ. لذا أمر بتربية عدة قِطط، بأن تقف أمام المائدة وهي تحمل شموعاً

والناس يأكلون. فعندما تمَّ تعلمُ هذه القطط الأربع أمر الملك بإحضار المائدة ودعا وزيرهُ أيضاً. فرأى الوزير القطط واقفة على أطراف المائدة وهي تحملُ شموعاً وكانت المائدة تحتوي على الطعام المَلَكي ولم تكن القطط لتنظر إليهِ أبداً. قال الأمير: انظرْ إنّ التربية تصنع القطّة، فكيف لا تصنع ولا تبني الإنسان؟!

لم يتكلم الوزير بل أعدّ أربعة فئران، ووضعها في محفظة وجلس على المائدة، جاءت القطط ووقفت عند أطراف المائدة. وعند تناول الطعام أخرج الفئران خفية. فَرَمَتْ القِطَطُ الشموع وأخذت تركض خلف الفئران.

التخلّي عن الصفات الرذيلة:

هل يمكن للتربية بناء الإنسان؟ كلاّ من المستحيل. فمعنى هذه التربية وهي الأخلاق الانتفاعية هو الابتعاد عن الدين وتركه. ولكن في الإسلام تربية أخرى تسمّىٰ تهذيب النفس وكثر ذكرها في القرآن. جاءت أكثر من أربعة آلاف آية حول تهذيب النفس. فلا نخطىء لو قلنا إنّ القرآن مصنعٌ لبناءِ الإنسانِ وتهذيب النفس. كان أستاذنا قائد الثورة العظيم يقول: لا نجدُ في القرآن آيةً لا تتحدث عن تهذيب النفس، فإنّهُ يهتمّ كثيراً بتهذيبها. حتى أنّه يقول في سورة الشمس بعد ١١ قسماً: **﴿قدْ أفلحَ مَنْ زكّاها، وقد خابَ مَنْ دَسَّاها﴾**.

قال تعالى في سورة يٰس الآية ٨، ٩:

﴿إنّا جعلنا في أعناقهِمْ أغلالاً فهيَ إلى الأذقانِ فهُمْ مُقْمحونَ، وجعَلْنا منْ بين أيديهِمْ سدّاً ومنْ خَلْفِهِمْ سدّاً فأغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرونَ﴾.

فالصفة الرذيلة هي غلٌّ لغِل السمع والبصر والقلب واليد والرجل وكلّ شيء بحيث لا يمكن للإنسان التحرّك. والرذيلة سدٌّ، فالحسد مثلاً يجعل الإنسان يقتل أخاه، كما قتل قابيل أخاهُ هابيل وكما ألقىٰ يوسفَ إخوتُهُ في الجُبِّ، ولو تكبّر الإنسانُ صار مستبدّاً فلا يقبل نصيحةَ ناصحٍ.

فابتعدوا عن العناد والاستبداد بالرأي والتكبّر والتفاخر. يقول القرآن:

﴿قل كلٌ يعملُ على شاكِلَتهِ﴾[1].

فآفعلوا أفعالاً تطهّرُ قلوبكم.

﴿يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلاّ مَنْ أتـىٰ الله بقلبٍ سَليـمٍ﴾[2].

يُسمّي علماءُ الأخلاق مقدمةَ الإيمان القلبي (بالتخلية)، (ترك الصفات الرذيلة) وإنْ لم تحصلْ التخلية لم تحصلْ التحلية بالإيمان القلبي. قال تعالى:

﴿والبلَدُ الطّيبُ يَخْرُجُ نَبـاتُهُ بإذنِ رَبّهِ﴾[3].

فعندما يكون القلب طاهراً وسليماً يكون قوله وفعلهُ ونواياهُ طاهرة أيضاً.

﴿والذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاّ نَكِداً﴾[4].

لذا آهتمّ علماء الأخلاق بمقدّمة الإيمان القلبي من غير النظر إلى القرآن والروايات. حتّى أنهم يراقبون ويتابعون مَنْ يجدون فيه تلك الأرضية.

كانت للسيد المرحوم علي الشوشتري كرامات. كان من تلامذتهِ المرحوم الآخوند الخراساني والمرحوم القاضي وكان العلاّمة الطباطبائي من تلامذة القاضي. كان السيد علي الشوشتري قاضياً في شوشتر وكان من العلماء الكبار.

حدث نزاعٌ بين جماعة فجاؤا إليه، فأراد حلّ النزاع فلم يعلم ماذا يفعل. وكان النزاع على أرض موقوفة. فهؤلاء وضعوا سنداً للقضاء على هذه الأرض الموقوفة، فكان من المقرر أن يحكم هذا السيد غداً بأنّ الأرض ليست موقوفة. وفي تلك الليلة رأى أن رجلاً يسمّىٰ ملاّ قلي جاء إلى السيد علي وقال له ان الحكم الذي تريد أن تعلنهُ غداً باطلٌ. وإنّ سندهُ في المكان الفلاني، اذهب وشاهدهُ فإنّ هذه الأرض وَقْفٌ. ثم قال: لا يمكنك البقاء هنا، فتعال إلى النجف لكي تتهذّبَ.

---

(١) سورة الإسراء/ الآية ٨٤.

(٢) سورة الشعراء/ الآية ٨٨ و٨٩.

(٣) سورة الأعراف/ الآية ٥٨.

فترك كلّ شيء وجاء إلى النجف، ورغم أنّه كان تلميذ الشيخ الأنصاري، لكنّ الشيخ الأنصاري كان يقول عنه وعن الآخوند الهمداني أيام الخميس: لقد صدأت قلوبنا، علينا أن نحضر غداً في درس الشوشتري لتطْهُر قلوبنا.

لقد كان تقياً كالآخوند الهمداني، والمرحوم القاضي.

تهذيب النفس:

كان أستاذنا العظيم العلامة الطباطبائي يقول: عندما ذهبتُ إلى النجف كنتُ حيران بأن أحضر في درس أي عالمٍ وماذا أفعل؟ فاستأجرتُ بيتاً. وفي تلك الأيام الأوائلِ جاء سيّد عظيم وقال: من الصحيح أن يقضي الإنسانُ نصف عمره في البحث عن معلّمِ الأخلاقِ، ثم قال: لا ينفع العلم بدون التهذيب. فعليك أن تكون مهذّباً، فاحضر درسَ الأخلاق.

يقول فحضرتُ درسهُ في الأخلاق في اليوم الثاني. كان يقول: كلٌّ ما عندي هو من القاضي. وهكذا جَرَّ السيد الطباطبائي في أثرِهِ.

عندما كان يصدر من علي بن يقطين فعل بسيط جداً تجاه علي بن إبراهيم الجمّال، لم يأذنْ له الإمام موسى بن جعفر (ع) بالدخول إلى البيت ثلاثة أيام وكان يقول ما دام علي بن إبراهيم متألّماً منك فأنا متألم منك أيضاً. قال ماذا أفعل؟

قال لهُ: هيء جملاً، فهيّأهُ وجاء إلى الكوفة وطرق باب علي بن إبراهيم وقال: اعذَرني.

قال: عفوت عنك. فوقع هذا الوزير على الأرض ووضع رأسهُ على التراب وقال: اسحقْ رأسي برجلك لأطمأنّ بأنك راضٍ عني. فرفض علي بن إبراهيم ذلك.

قال علي بن يقطين لو أردتَ أن يطمئنّ قلبي وأن تُريْحني فافعل ذلك. فوضع رجلَهُ على رأسِهِ. فقال: اطمأنّ قلبي. فذهب إلى الإمام الكاظم (ع) فقال له (ع): رضيتُ عنكَ.

يقول البزنطي: كنتُ عند الإمام الرضا (ع)، وبعد ذهاب النِاس قال الإمام (ع): لو أردتَ البقاء فآبقَ. يقول: بقيتُ. ففرحتُ وكأن الغرور أصابني، فأنا الذي أضافني الإمام الرضا وقبلني ضيفاً عنده هذه الليلة.

يقول: كنتُ في السجود، فقال الإمام (ع) مرّتين: ذهب أمير المؤمنين (ع) إلى بيت صعصعة فآغترَّ صعصعة. فقال له أمير المؤمنين: يا صعصعة! لا تجلس هنا وهناك وتقول أنا الذي جاء أمير المؤمنين إلى بيتي!!

فمهما كان التكبّر قليلاً فإنّه يقلع جذور الإيمان. فراقبوا أنفسكم وكلّنا نحتاج إلى درس الأخلاق. ولا تقولوا إننا نعرف الأمور كلّها.

كان الرسول (ص) يقول: اتلُ القرآن يابن مسعود وأنا أستمع. وكان أمير المؤمنين (ع) يقول: عِظْني وانصحني. فقال يا علي! أنا أعِظُكَ؟!

قال: نعم، إنّ للموعظة أثراً لا يوجد في المعرفة والعلم، فَعِظْني.

فيجب أن نحضر هكذا دروس لتُجلي صدأ القلوب.

خلاصة البحث:

والخلاصة هي: لا شيء سوىٰ الإيمان القلبي يُلزمُ الإنسان ويصلحهُ، ويحصل الإيمان القلبي من ثلاثة أمور:

١ ـ الالتزام بظواهر الشرع.

٢ ـ الصبر عند المصائب.

٣ ـ التخلّي عن الصفات الرذيلة. وهو صعبٌ لكنّه واجبٌ.

الفهرس